جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة السنة الجامعية: 2021/2020

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

السنة الأولى ماستر

التخصص: المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية.

المقياس: الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م.

الأستاذة: فتيحة صحراوي

تعتبر الحملة الفرنسية على الجزائر، منعطفا حاسما في تاريخ الجزائر، حيث أنهت فترة الحكم العثماني التي دامت أكثر من ثلاثة قرون، وأسست لاستعمار فرنسي دام 132 سنة، وقد أثير جدل ونقاش حول أسباب الحملة، وخلفياتها، ونتائجها.

المحاضرة الأولى: أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني.

(سأحاول التطرق باختصار إلى مراحل الحكم العثماني بالجزائر، وأهم مميزات كل فترة حتى يتسنى لنا فهم طبيعة نظام الحكم ومن ثم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم؟).

1- مرحلة البيلربايات: (1519- 1578م):

تمثل هذه المرحلة بداية ارتباط الجزائر سياسيا وإداريا، بالدولة العثمانية، وقد كان ذلك رسميا سنة 1519م.

- أغلب البيلربايات الذين تولوا الحكم كانوا من فئة رياس البحر، وقد كانوا من جنسيات مختلفة، حتى الذين اعتنقوا الإسلام، (عرفوا بالأعلاج)، وصلوا إلى مناصب سياسية مهمة، وهذا ما يصبغ على هذه الفترة طابعا إسلاميا، بعيدا عن الانتماء الطائفي، والتمييز العرقي، فهناك الأتراك، والعرب، والأعلاج، تولوا حكم الجزائر، لأن الكفاءة والإخلاص هو المقياس في تولي المناصب، وهذا ما سمح بتولي بعضهم الحكم لعدة مرات مثل حسن بن خير الدين.

– تم توطيد ركائز الحكم، وتوحيد رقعة البلاد ، حيث استطاع البيلربايات أن يحققوا الوحدة الإقليمية، والسياسية للجزائر، والقضاء على كل الإمارات المحلية، ويعود الفضل إلى صالح ريس(1552–1556م) في تحقيق هذه الوحدة، ومد نفوذ الأيالة إلى أجزاء الصحراء ضمن هذه الوحدة،كما قام البيلرباي حسن باشا ابن خير الدين في ولايته الثانية (1557–1561م) بتنظيم إدارتها، إذ قسمها إلى ثلاثة بياليك وهي:– بايلك الشرق و عاصمته مدينة قسنطينة. – بايلك التيطري و عاصمته مدينة المدية.– بايلك الغرب و عاصمته مدينة مازونة ثم معسكر، وأخيرا وهران بعد تحريرها من الأسبان سنة 1792م، إضافة إلى دار السلطان والذي كان عاصمته مدينة الجزائر.

– تعتبر هذه الفترة فترة صراع بين القوة الإسلامية والقوة المسيحية، وقد كانت أيالة الجرائر منطقة احتكاك وجبهة صراع، فاشتدت في هذه الفترة الحملات الاسبانية على الموانئ الجزائرية، حيث شنت اسبانيا حملة على مدينة الجزائر في أوت 1519م، وحملة شارلكان (Charles Quint) الشهيرة سنة 1541م، باءت بالفشل، وأصبحت الجزائر بعدها تلقب بالمحروسة، كما وضع البيلربايات حدا لتطلعات الدولة السعدية الهادفة لاحتلال تلمسان.

– أصيح للجزائر في هذا العهد علاقات دبلوماسية مع العالم الأوروبي، وقد بدأت مع فرنسا اعتمادا على الامتيازات التي حضي بها فرانسوا الأول، لدى السلطان سليمان القانوني، حيث حصلت فرنسا على امتيازات واسعة في أملاك الدولة العثمانية سنة 1535م، وقد أصبح لفرنسا مركزا تجاريا بالسواحل الشرقية قرب القالة.

2– مرحلة البشوات(1587– 1659م):

كان ولاة عهد البيلربايات أصحاب نفوذ واسع، امتدت سلطتهم أيالة الجزائر، إلى أيالتي تونس، وطرابلس الغرب، بحكم أنهم أصحاب الفضل في فتح هذين البلدين، كانت فترة حكم البيلربايات غير محدودة، فكثيرا ما تمتد فترة حكم الواحد منهم عدة سنوات فيصبح صاحب نفوذ واسع، لدرجة أن الدولة العثمانية أصبحت تشتم رائحة التمرد، ومحاولة الانفصال عنها، فتقرر تقصير مدة الحكم إلى ثلاث سنوات فقط. ولابد من فصل الولايات عن بعضها البعض، وإسناد كل إدارة إلى باشا يحكمها، و ذلك لإحكام السيطرة على البلاد ومنع حدوث أي تمرد ضدها، وعليه فأهم ما ميز هذه الفترة أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

– عرفت البحرية الجزائرية نشاطا في هذه الفترة، وقد ساعدها على ذلك تشجيع البشوات على ذلك مثل خضر باشا، حيث حققوا انتصارات وغنائم معتبرة، ما أعطى أيضا لأيالة الجزائر مكانة دولية، نتج عن النشاط المتزايد للبحرية الجزائرية، توتر علاقاتها بالدول الأوروبية، التي انتهت بتنظيم هجمات على السواحل الجزائرية، فقد شنت حملة صليبية على مدينة الجزائر في أوت 1601 بقيادة الاسباني " جان دوريا " (Doria) و مباركة البابا متكونة، لكنها باءت بالفشل.

– وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين، بسبب تأييد فرنسا لاسبانيا في عدوانها على الجزائر، حيث تم تحطيم المركز الفرنسي بالقالة، وبالمقابل أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية وكان رد الجزائر بالمثل، وعلى إثر ذلك تعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من جهة، ومع الخلافة العثمانية من جهة أخرى، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض وإبرام معاهدة بتاريخ 1628/09/19م، والجدير بالذكر أن فرنسا لم تحافظ على نصوص هذه المعاهدة.

– شهدت فترة البشوات، نزاعا على الحدود مع حكام أيالة تونس، بسبب تدخل البايات التونسيين في شؤون شرق الجزائر، حيث كانوا يشجعون على قيام الاضطرابات، وتمت المصالحة بين البلدين بإبرام معاهدة صلح عام 1628م، كذلك الأمر بالنسبة للمغرب الأقصى.

– واجه البشوات عدة انتفاضات ضد الحكم المركزي، في الجهات الوسطى والنواحي الشرقية، مثل ثورة فليسة بمنطقة جرجرة، وانتفاضة جرجرة(1591– 1599م)...الخ، كما عرفت الفترة انتشار الأوبئة، وتكرر الجفاف، أهما وباء 1611م، و 1619م، 1632، ووباء الطاعون سنة 1663م، وكذلك قحط(1603– 1612م)، مما أضر بالإنتاج وحد من نمو السكان.

– عرف النظام الإداري في هذه الفترة تطورا ملموسا، فتحولت السلطة الفعلية إلى الديوان(الذي كان يتشكل من كبار الجند ورياس البحر)، الذي أصبح يفرض سلطته على الباشا ولا يأخذ بالتوجيهات السلطانية، وهذا ما سمح بازدواج في الحكم، وهذا بدوره أدى إلى اضطرابات في الحكم(من1630 إلى حوالي 1650م)، تمثل أساسا في عزل وسجن العديد من البشوات، وفي تحويل البشوات إلى موظفين همهم جمع الثروات، وكطالب مالية ثقيلة تسببت في العديد من الانتفاضات، كل هذا ساعد على التمهيد لحكم الأغوات.

3- مرحلة الأغوات(1659-1671م)

- تعتبر هذه الفترة من أقصر فترات الحكم العثماني في الجزائر، وفي غضون هذه الفترة القصيرة، تعاقب أربع آغوات على الحكم، وهم : خليل بلوآباشي، و رمضان بلوآباشي، وشعبان آغا، والحاج علي آغا. وجميعهم عرفوا نفس المصير المحتوم، الموت قتلا.

- مشاركة الأسطول الجزائري إلى جانب الدولة العثمانية، في حرب كريت الطويلة (1645- 1669م)، ضد البنادقة، أدى إلى حدوث خسائر معتبرة في العتاد والرجل بالنسبة لأسطول الجزائر، ما أدى إلى تراجع في الموارد المتأتية من النشاط البحري، خاصة السنوات التي سبقت سنة 1659م.

- ظهر تطوّر جديد في اتجاه استقلاليّة الأيالة عن الدولة العثمانيّة، بتحويل الباشا مبعوث السلطان إلى مجرّد حامل للأختام، وبرز الآغا الحاكم الفعليّ عن الجهاز التنفيذيّ أمام الديوان، ورأى الباب العالي هذه الخطوة خروجا عن طاعة السلطان، فقطع العلاقات مع الجزائريّين، ولكن الطرفان وجدا صيغة للإبقاء على أواصر العلاقات بينهما، وذلك بتعيين باشا له صلاحيات محدودة يكون ممثل السلطان، على أن تبقى مقاليد السلطة و النفوذ بين أيدي الآغا و الديوان.

- شنت فرنسا على الأيالة حملة عسكرية سنة 1663م، بقيادة الدوق دوبوفور، باءت بالقشل. وحملة أخرى عام 1665م، على كل من شرشال، والقل، وجيجل، هي الأخرى كان مصيرها الفشل، ولم يعد السلم بين الدولتين إلا بإبرام معاهدة جديدة في 7 ماي 1666م، كما قامت انجلترا عام 1669 بشن هجوم على الأيالة، والاعتداء على مراكبها في عرض البحر، لكن البحرية الجزائرية كانت بالمرصاد.

بعد اغتيال علي أغا عام 1671م، ألغيت هذا النظام بقرار من ديوان الأوجاق وعوض بنظام الدايات.

4- مرحلة الدايات (1671- 1830م):

تمثل هذه الفترة المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني بالجزائر، وهي من أهم الفترات باعتبارها الأطول زمنا، حيث دامت حوالي 159 سنة، وهي تمثل أيضا الاستقلال الحقيقي لأيالة الجزائر عن الدولة العثمانية، في تسيير شؤونها الداخلية و الخارجية، حيث احتفظت الدولة العثمانية لنفسها بسلطات شكلية في الأيالة، تمثلت أساسا بالدعاء

للسلطان العثماني في صلاة الجمعة، والاعتراف بمراسيم التعيين، والتعاون في مجال الحروب، بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدات في حال تعرض الدولة العثمانية لاعتداء خارجي، وكذا في تقديم الهدايا أثناء المناسبات الدينية والسياسية، وبالتالي القاسم المشترك بين الدولتين دفع بأيالة الجزائر إلى الإعلان عن ولائها الروحي للدولة العثمانية.

وقبل الخوض في مميزات فترة الدايات، لا بد لي أن أشير إلى أمر مهم وهو التركيز على أهم أحداث الفترة الأخيرة من هذه المرحلة أين تفاقمت الأوضاع عامة، مع تسليط الضوء علو فترة الداي حسين (1818-1830م) باعتباره المسؤول الأول، والمسير لفترة الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م.

- ثم لماذا أثير الجدل والنقاش، حول سياسته في الفترة ما بين 1827- 1830؟، هل لهذا الجدل والنقاش ما يبرره؟

- هل فعلا سلم الداي حسين القصبة على طبق من ذهب للفرنسيين؟

المحاضرة الثانية:

الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية قبيل فترة الداي حسين

1- الأوضاع السياسية:

إذا كان تحرير وهران النهائي سنة 1792م، على يد الباي محمد الكبير قد حقق القضاء على المطامع الصليبية الاسبانية، التي استهدفت تقويض دولة الإسلام في المغرب العربي عامة، وفي إيالة الجزائر خاصة، قد حقق لهذه الأخيرة وحدتها الترابية، فإن عوامل التدهور كانت تفعل فعلها أيضا منذ الداي حسن باشا(1791-1798م)، لأن سياسة الدايات الذين تعاقبوا على الحكم بعده لم ترتكز على دعائم قوية لتثبيت السلطة، وما رافقها من ظلم ووباء، وما صاحبها من مجاعة وضرائب، فكل ذلك كان إرهاصا بما ستعرفه الجزائر خلال العهد العثماني الأخير من تدهور في سائر الميادين.

إن الميزة البارزة التي ميزت العهود الأخيرة، هي الفوضى، وعدم الاستقرار. فبتأسيس نظام الدايات، وبالرغم من القضاء على ازدواجية الحكم من خلال إلغاء منصب الباشا ممثل السلطان العثماني سنة 1710م، حيث عرف هذا النظام استقرارا لم يدم طويلا، حتى عاد الجند إلى العصيان والتمرد، فأصبحوا يعزلون ويعينون حسب هواهم، فكانت نهاية معظم الحكام الاغتيال على يد الجند.

أما على مستوى البياليك، فهي الأخرى شهدت فوضى واضطرابات، فكلما كانت الأوضاع مضطربة في دار السلطان، انعكس ذلك سلبا على وضاع الأيالة عامة، فقد كثر عزل أو قتل البايات، لا سيما الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، وذلك في إطار الصدام والصراع الدائم على السلطة، فخاف الدايات مثلا من نفوذ بعض البايات، واستقلالهم بأقاليمهم عن السلطة المركزية، مثلما حدث للباي محمد الكبير(1779- 1792م)، والمكانة التي حضي بها بعد تحرير وهران، وكذا صالح باي وما عرفه بايلك قسنطينة في عهده من استقرار وتقدم، ورغم ذلك قتل من طرف الإنكشارية بأمر من الداي في عام 1791م.

ولم يعد البايات يختارون بالمقاييس المعتادة كالحكمة، والكفاءة، والشجاعة، بل يختارون وفقا للمحسوبية، والصلات التي تربطهم برجال الأوجاق في العاصمة، ووفقا لما يدفعونه من

رشوة لمن بيدهم الأمر، وفي هذا الشأن يقول حمدان خوجة: "...كان البايات في الفترة الأولى لا يعزلون إلا نادرا، ولكن في العقود الأخيرة، كثرت التغيرات، والاغتيالات في سلك البايات...".

والظاهرة الأخرى هي تفشي ظاهرة الرشوة، التي كانت تدفع لكبار المسؤولين في الحكم، فتعيين الموظفين في مناصبهم، من أعلى منصب في السلطة (الداي)، إلى أبسط موظف فيها، كانت توزع على الأقارب، أو من يدفع أكبر قدر من المال، وذهبت الخبرة، والكفاءة، والنزاهة مع مهب الريح؟

ومما زاد الطينة بلة، هو سياسة الحكام البعيدة عن العدل، يقول العنتري: "... الأتراك في بدء أمرهم عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحد، وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس، ويسفكون دمائهم، ويأخذون أموالهم بغير حق ...، ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد...".

هذا عن الوضع السياسي الداخلي ، فماذا عن الأوضاع الخارجية لأيالة الجزائر، ولا سيما علاقاتها مع الدول الأوربية؟

كانت بداية القرن الثامن عشر، بداية لظهور تكتلات صليبية من أجل قضية الاسترقاق، والقضاء على الجهاد البحري، في دول شمال إفريقيا عامة، والجزائر خاصة، فعرفت أوربا سلسلة من المؤتمرات بشأن ذلك، نذكر منها:

مؤتمر فيينا:

انعقد هذا المؤتمرسنة1814، أثير فيه موضوع القرصنة بالجزائر، وذلك انطلاقا من فكرة سيدني سميث، الذي اقترح على المؤتمرين ضرورة قيام أوربا بعمل جماعي ضد البحرية الجزائرية، ووضع حد للقرصنة التي تمارسها دول المغرب العربي.

انتهت أشغال المؤتمر بتحرير محضر في 9 جوان 1815، طرحت من خلاله مشكلة دول المغرب العربي عامة، والجزائر خاصة، التي بات أمرها بالغ الأهمية يتوجب تنفيذه في أقرب وقت، وتحريم استرقاق المسحيين في دول شمال إفريقيا، وبالتالي ادعت الدول الأوروبية لنفسها حق حماية الأرقاء من"القرصنة"، لقد فتح مؤتمر فيينا الأبواب لعقد مؤتمرات أخرى، محورها يدور حول قضية الاسترقاق، وإلغاء القرصنة، إلا أن المجتمعون لم يتمكنوا من اتخاذ

قرار موحد، فرأوا أن الباب العالي هو الحل الوحيد لإقناع دول شمال إفريقيا، التخلي عن القرصنة، إلا أن المسألة أخذت وقتا طويلا، فطرحت من جديد في 30 سبتمبر 1818 في مؤتمر إكس لاشابيل، أين بدا الخلاف والتنافس بين الدول الأوروبية يزداد وضوحا، وبعد أخذ ورد وتشاور، اتفقوا على فكرة القضاء على قوة المغاربة، ومن بينها الجزائر، اختتمت أشغال المؤتمر في 20 نوفمبر 1818، وخرجوا بالقرارات التالية:

- إرسال إنذار إلى دول شمال إفريقيا بالكف عن القرصنة والاسترقاق.

- استعمال القوة إذا استلزم الأمر ذلك.

بالإضافة إلى هذه المؤتمرات، شنت حملات عسكرية ضد إيالة الجزائر، كانت لها أثار مدمرة على البنية العسكرية، وكذا الاقتصادية، نذكر منها:

- حملة الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1815:

كانت بين أيالة الجزائر، والولايات المتحدة الأمريكية علاقات تعود إلى معاهدة 5 سبتمبر 1795، إلا أن هذه الأخيرة كانت تتماطل في تنفيذ هذه المعاهدة، الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين، وبعد مؤتمر فيينا، استغلت أمريكا الوضع، ورفضت دفع الإتاوة للجزائر، فأرسلت أسطولا إلى حوض البحر المتوسط سنة 1815، لخيار هذه الأخيرة بين أمرين: إما الصلح، أو ضمان تجارة بلدها من جميع أنواع القرصنة، على اثر هذا الخلاف، والتوتر بين البلدين، فقدت الأيالة خيرة رجالها، وأشهر القبطان في ذلك الوقت، الريس حميدو، اثر صدام بين الأسطولين الجزائري والأمريكي.

- الحملة الانجليزية- الهولندية (1816):

بعد مؤتمر فيينا، كلف اللورد إيكسموث، بالذهاب إلى الدول المغاربة، ليطلب منها تحرير العبيد، إلا أنّ أيالة الجزائر رفضت طلبه هذا، فهدد بحرق المدينة، وفي يوم 26 من نفس السنة، عاد الأميرال إلى الجزائر، وبجانبه العمارة الهولندية، وبالرغم من تهيأ الأيالة لصد هذا الهجوم، إلا أنها فشلت في صده، فألحق الأسطول الإنجليزي في قصفه للمدينة خسائر فادحة، وأجبرت الداي عمر باشا، على توقيع معاهدة مذلة، نصت على تحرير الأرقاء، وإلغاء نظام الرق، ودفع تعويضات الحرب التي قدرت بخمسمائة آلف، وتقديم الاعتذار.

2- الـوضع الاقـتصادي:

ما لبثت أوضاع الجزائر السياسة، والاجتماعية والاقتصادية، أن تعرف تحسن أثناء القرنيين السادس عشر، والنصف الأول من القرن السابع عشر، ثم سرعان ما دخلت البلاد مرحلة من الركود، لتبلغ درجة من التقهقر والانكماش في معظم المجالات، ولا سيما الاقتصادية منها، متأثرة بالأوضاع الداخلية، والخارجية للبلاد.

عانت الزراعة من قسوة الطبيعة كالجفاف، والجراد، وانتشار الأوبئة...الخ، و ضعف وسائل الإنتاج التي لم تسع السلطة لتطويرها، رغم هذه الظروف، فقد حظي القطاع الزراعي بالتنوع من حيث المحاصيل، حيث كانت الجزائر تصدر كميات من الحبوب إلى الخارج كالقمح والشعير، فالقمح الصلب ذو النوعية الرفيعة، عرف رواجا كبيرا في أسواق أوربا، وبعض المنتجات الأخرى كالخضر، الصوف، الزيت، والجلود...الخ، كما توفرت الإيالة، وعلى طول ساحلها على ترسانات مجهزة لصناعة السفن، والقوارب، وكذا صناعة الأسلحة، كالبنادق، وسبك المدافع وتحضير البارود.

أما عن النشاط التجاري، فقد احتكرت طائفة اليهود التجارة الداخلية، وعلى الرغم من توافر المنتجات الزراعية، كالحبوب والصوف، والمرجان،...الخ، كانت فرنسا تحتكر استراد الصوف والجلود، والقمح، أما عن واردات الجزائر، فقد تمثلت في العطور، والمصبرات من فرنسا، والزليج من إيطاليا، وغيرها.

3- الأوضاع الاجتماعية:

بسبب هذا التطاحن من أجل المحافظة على السلطة، اتسم الوضع الاجتماعي في أيالة الجزائر بكثير من العنف في مواجهة الواقع بكافة أشكاله، وقد ساهمت في حدته الأحوال الاقتصادية المضطربة، التي عانت من آثار الجفاف، وضعف التجارة والصناعة، مما نتج عنه انهيار نقدي لقيمة العملة، التي تنوعت بتنوع حكام الجزائر، وهذا ما جعل الأيالة أمام صعوبات جمة، بانتشار الوباء والجوع، والغلاء، أثّر على التماسك الاجتماعي.

إن تراكم هذه الظواهر، في عصر استفحلت فيه أحداثه السياسية، عانت من جرائها الجزائر الأمرين، فقد تسبب الجراد والجفاف في مجاعات أدت إلى هلاك الكثير من الناس،

ومن أهم المجاعات التي عرفتها البلاد: مجاعة 1579، وعام 1580، ومجاعة 1752، والتي دامت أربع سنوات، كما نذكر مجاعات 1778، و1779، ومجاعة 1789.

اشتدت وطأة المجاعات في الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر، والربع الأول من القرن التاسع عشر، فقد عرفت أيالة الجزائر مجاعة على عهد الداي مصطفى باشا(1798-1805)، اضطر هذا الأخير إلى استراد كمية من الحبوب لتغطية احتياج المدينة، ووقعت مجاعة شديد في الشرق الجزائري (بايلك الشرق) ، من مجاعات هذه الفترة أيضا، مجاعة عام 1806، و1807، ومجاعة عام 1816، حيث سبق هذه المجاعة الأخيرة، اجتياح الجراد سنة 1815، أين قضى على كل بساتين المدينة وفحوصها، وكذا البليدة والقليعة، حيث أفسد أغلب المزروعات، وقد أدى هذا الوضع إلى إصابة الحيوانات بالوباء، وانعدام المزروعات حتى كادت الضرائب العينية تنعدم في تلك السنة، لقد عرف هذا العام (1815) بعام الشؤم، لأنه عرفت فيه البلاد كوارث طبيعية وبشرية، وكان الزحف للجراد، هو السبب المباشر في مجاعة 1816، والعامل الرئيسي لوباء 1817.

هذه الأمراض والأوبئة لم تجد حلولا، لعدم اعتناء حكام أيالة الجزائر بصحة السكان عامة، فلم يشجعوا تعليم الطب، وأهملوا بناء المستشفيات، فتركوا السكان يلجئون إلى المداواة بالطرق التقليدية، فعدم العناية بالحالة الصحية تسبب في ظهور مرض الطاعون من حين للآخر، كما أهملت اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد دخول الأوبئة إلى البلاد، بمنع دخول السفن والأشخاص الحاملين لها، فتطبق عليهم نظام الحجز الطبي المعروف بالكرنتينة.

أمام هذا الإهمال، ولا المبالاة من طرف الحكام، وأمام فرض ضرائب متنوعة من طرف البايات لضمان مناصبهم، وأمام العجز المالي لخزينة الدولة، نتيجة تراجع موارد الجهاد البحري، أصبحت الضرائب تجمع دون مراعاة أية سياسة، أو قانون، فكانت السلطة سوطا ضاربا، على المواطن البسيط الذي لا حول، ولا قوة له، فلم يجد هذا الأخير سوى الانفجار، والقيام بحركات معادية ضد سلطة الحكم، مبررا بذلك عصيانه، فما زادت هذه الأعمال سوى تفاقم الوضع، وضعف للأيالة.

عرف القرن التاسع عشر، أكبر وأخطر ثورة شهدها العثمانيين منذ مجيئهم إلى الجزائر، ألا وهي الثورة التي قادتها الطريقة الدرقاوية عام (1219هـ/1804م)، فلم يتمكن الأتراك من

القضاء عليها بسهولة، رغم ما سخّر لذلك من إمكانيات، ووسائل؛ وترجع الأسباب إلى انتشارها الجغرافي الواسع، وإلى تجند القبائل ضد السلطة الحاكمة في الجزائر، حيث شملت الثورة المنطقتين الشرقية، والغربية في الوقت ذاته، ولم ينتهي القتال بين الطرفين، إلا باختفاء ابن الشريف الدرقاوي سنة 1813م.

في ظل التنافس الإنجليزي– الفرنسي على اكتساب مناطق النفوذ في إيالة الجزائر، اندلعت ثورة ابن الأحرش بشمال قسنطينة، متزامنة مع نظيرتها بالغرب، استغل ابن الأحرش عدم وجود الباي عثمان، ومن ثم هاجم المدينة، فكان أول اصطدام بين ابن الأحرش، والجيش التركي في ربيع 1804م، وجد الجيش التركي صعوبة في المقاومة فانسحب إلى المدينة، لما عاد الباي عثمان جهز جيشا، وسار به إلى واد الزهور، أين يحتمل أن يكون ابن الأحرش معسكر هناك، إلا أن هذا الأخير، وبفضل حنكته، دبر للباي حيلة أوقعه فيها، فحوصر الباي وجيشه، فقتل عدد منهم، كما لقي الباي حتفه.

غضب الداي كثيرا لوفاة الباي، وقرر أن يخرج بنفسه لملاقاة ابن الأحرش، إلا أن حاشيته رفضت ذلك، فأرسل علي أغا، ليرافق الباي الجديد عبد الله خوجة، فلتقيا بابن الأحرش في ميلة، فقتلا له عدد من رجاله، وضيق عليه البلاد فتخلى عنه السكان، لم تتوقف هذه الفوضى، والاضطرابات في بايلك الغرب والشرق، بل تعدتها إلى بايك التيطري، حيث ثارت قبائل، ضد سلطة الأتراك طالبين منهم الرحيل، غير أن قائد قبيلة أولاد مختار حليف الأتراك نكل بهم، كما رفض أولاد نايل دفع الضريبة، إلا أن الباي أدبهم.

واقع سياسي مشحون بالصراع على السلطة داخليا، وتحرشات، وتكتلات أوروبية صليبية ضد الأيالة خارجيا؟

واقع اجتماعي، متّسم بكثير من العنف في جميع أشكاله؟

ضعف وركود اقتصادي، ولا سيما بعد تراجع موارد النشاط البحري؟

المحاضرة الثالثة

أوضاع أيالة الجزائر في عهد الداي حسين (قبل الحملة الفرنسية 1830م)

1- تعريف الداي حسين

بمدينة صغيرة بآسيا الصغرى، اسمها صندوقلي، ولد حسين حوالي سنة 1768، ابن حسن، التحق الداي حسين بإحدى المدارس العسكرية باسطنبول، في سلك المدفعية مدة ثلاث سنوات، ليتخلى عنها ويلتحق بالجزائر، ثم تجند في مليشيا الجزائر كأحد جنود الحامية التركية، ترقى إلى أن أصبح عضوا بالديوان، فازدادت بسببها شهرته، غير أن حسين برز، وصقلت شخصيته في عهد الداي عمر باشا(1815- 1817) ، فعينه إماما، ولقبه بالخوجة، شغل منصب كاتب مخزن الزرع، ليصبح فيما بعد خوجة الخيل.

عند اعتلاء الداي علي خوجة (1817-1818) الحكم، عين حسين خوجة في منصب خوجة الخيل ، واستغرب من تعيينه في هذا المنصب، لأن الداي علي خوجة كان قد تخلص من جميع موظفي الداي السابق (عمر باشا)، أصبح حسين خوجة محل ثقة الداي الجديد، فشاركه في نقل مقر قصر الجنينة إلى القصبة، حيث أصبحت ودائع الخزينة، وسجلات الدولة، والموظفين في مأمن من تمرد فرق الانكشارية، التي كسر شوكتها الداي الجديد علي خوجة.

2- طريقة توليه الحكم:

لقد ساءت أوضاع أيالة الجزائر في الفترة الأخيرة عامة، وفترة الداي عمر باشا خاصة (ربما لما أصاب الإيالة من مصائب) ، ومن أجل إنقاذ البلاد، أو تدارك ما أصابها من تدهور على جميع الأصعدة، اجتمع العلماء، والفقهاء، والمشايخ، والشرفاء... وغيرهم، وأجمعوا على تنصيب حسين، دايا خلفا للداي عمر باشا(1815- 1817)، وما هذه الرسالة إلا دليل على تأكيد ذلك، هذا بعض ما ورد فيها: " ليكن معلوما لدى المقام الشاهاني العالي أن عبدكم... حسين خواجة يعد من الذين يحسنون التدبير والتدوير في أمور الدولة لما يتمتع به من خبرة طويلة... ولذا فقد ارتأينا نحن الممضيين أدناه بعد اجتماع عام... تعيين وتنصيب حسين خواجة المذكور – الإمارة والباشوية- لأوجاق جزائر الغرب خلفا لعمر باشا...".

رغم محاولة تعيين خوجة الخيل حسين في منصب الداي فترة حكم عمر باشا، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، وعين مكانه علي خوجة، بعد موت هذا الأخير، لم يطّلع على الأمر إلا صهره السيد مصطفى ابن الشيخ بن مالك، فذهب إلى حسين بمنزله، وبعد أن أخذ عليه العهد أن لا يضره، أعلمه بموت الداي، لم يصدق حسين الخبر، وأصبح خائفا، إلا أن مصطفى طمأنه بصدق الخبر وذهبا إلى دار السلطان، وهنا أعلم مصطفى الحضور بأن الداي وافته المنية، وترك وصية بتولية خوجة الخيل حسين.

كانت دهشة حسين كبيرة، لأنه لم يكن ينتظر هذا، فقد كان يرى أن هناك من أكفأ منه من بين أعضاء الديوان، ولهذا حاول التهرب من هذه المسؤولية، إلا أن رجال الديوان والانكشارية أصروا عليه، كيف لا وهو الرجل الذي يرون فيه :

أنه لا يمكن أن يتحرك إلا في دائرة الشريعة المحمدية (لأنه كان إماما).

وهو الرجل الذي يحسن التدبير، وتسيير أمور الإيالة لما يتمتع به من خبرة طويلة، وكفاءة، وتجربة هذه الميادين، وذلك للمناصب التي تقلدها فأكسبته شهرة ومكانة عالية، وبويع بيعة عامة يوم 1 مارس 1818، فلبس الخلعة، وذلك بحضور كافة الوزراء، والقضاة، وأعيان البلاد، للإعلان عن هذا الإجراء السياسي، بعث أعضاء الديوان مرسوما إلى الباب العالي، فرد هذا الأخير بالقبول، والترحاب يقول الفرمان: "... علمنا بأن المقصود بالجلوس مكان المتوفى علي باشا هو أنت، وهذه المرة وبسبب سعي وتوجيهات ومحاسن الجميع، الواردة في طلبات ومعروضات وجهاء وأعوان الجزائر، يتفضل ملك الأنعام بقبول جدارتكم..."، هذا الفرمان يؤكد مرة أخرى إجماع الجميع دون مخالف، أو معارض على تنصيب حسين خوجة دايا، الأمر الذي يبرهن على الإجماع في الرأي لصالحه.

3- اجتهاداته في تنظيم الجيش:

تولى الداي حسين الحكم وحالة الجيش تعكس ما آلت إليه البلاد من ضعف على المستويين الداخلي والخارجي، وما أثر سلبا على الحالة العسكرية حملة اللورد إكسموث الانجليزي سنة 1816م، فزادت الطينة بلة، والمرض علة، مما خلفته من أضرار جسيمة، لا سيما في الأسطول البحري. فكيف تعامل الداي مع هذا الوضع؟

وبما أن عملية التجنيد في الولايات العثمانية كانت لا تتم إلا بموافقة السلطان العثماني، الذي كان يصدر فرمانا للقيام بهذه العملية، كان لا بد على الداي، ووكلائه في الولايات العثمانية كسب ود، وصداقة المسؤولين العثمانيين، وذلك بإرسال لهم هدايا، إذن فالتجنيد كان يكلف خزينة الدولة أموالا باهظة؟

كان يتم تسجيل الجنود المتطوعين في قوائم، ويتم إيصالهم إلى الجزائر عن طريق السفن الجزائرية، أو سفن بلدان أخرى كفرنسا، وانجلترا... وغيرها،

والجداول التالية تبين: السنة، وعدد الجنود المتطوعين، ومكان تجنيدهم.

سنة 1824م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1240هـ/ 1824م - ربيع الثاني/ نوفمبر -25صفر/20أكتوبر	80 109	حافظ إسماعيل باش داي الحاج خليل أفندي	فرنسية فرنسية	سميرن سميرن
المجموع	**189**	/	/	/

سنة 1825م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1240-41هـ/ 1825م				
1240هـ	35	أرناووط أحمد	؟	؟
15- رمضان/4 ماي	01	أغا	؟	تونس
	150	؟	؟	؟
15- شوال/3جوان		الحاج أحمد أفندي	؟	؟
	91		؟	؟
20-ذي الحجة/7أوت	136		فرنسية	سمير
	115	الحاج خليل أفندي	فرنسية	ن أزمير
1241هـ		الحاج خليل أفندي		
- 6جمادى2/27جانفي		الحاج خليل أفندي		
- 7جمادى1/19ديسمبر				
- 7صفر/22سبتمبر				
المجموع	**518**	/	/	/

سنة 1826م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1241-42هـ/				
1826م	76	الحاج	؟	؟
1241هـ	55	علي ريس	؟	؟
-21رجب/2مارس	40	قدور	هولندية	؟
-4رجب/13فيفري	02	بازون	؟	تونس
-12ذوالقعدة/19جوان	(/)	؟	حربية؟	؟
-17ذوالحجة/24جويليه	87	؟	؟	؟
-10ذوالقعدة/17جوان		؟		
1242هـ	157	الحاج	؟	؟
-22محرم/27أوت	148	أحمد أفندي	إنجليزية	أزمير
-1ربيع2/2نوفمبر				
-1ربيع1/3أكتوبر		؟		
		أحمد ألاي سردار وكيل في أزمير		
المجموع	**565**	/	/	/

سنة 1827م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1242هـ/ 1827م				
11-شعبان/9أفريل	87	الحاج	؟	؟
19-شعبان/17أفريل	157	أحمد أفندي	؟	سميرن
-	50	؟	؟	أزمير
13جمادة2/13جانفي	(/)	؟	؟	أزمير
13-رجب/11فيفري	60	؟	؟	أزمير
15-رجب/13فيفري		بابا علي		
المجموع	**354**	/	/	/

سنة 1829م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1244-45هـ/ 1829م				
1244هـ				
-21ذوالحجة/25جوان	06	محمد المفتي	مصرية	الإسكندرية
1245هـ				
-21محرم/24جويلية	05			تونس
-21ربيع1/21سبتمبر	07	أوزون	؟	؟
-1رجب/27ديسمبر	25	أحمد صهر الخزناجي	؟	؟
-24جمادة2/22ديسمبر	(/)		؟	؟
-6ربيع2/6أكتوبر	03		؟	الإسكندرية
-15جمادة1/13نزفمبر	24	إبراهيم خوجي ؟ الحاج علي ؟	مصرية	الإسكندرية
المجموع	**64**	/	/	/

سنة 1830م

السنة (الهجري/ الميلادي)	عدد المجندين	المسؤول على إيصالهم	سفينة النقل	البلد الذي جمعوا فيه
1245هـ/ 1830م				
-27ذوالحجة/20جوان	29	ابن	؟	الإسكندرية
-7رجب/3جانفي	(/)	مصطفى رايس	؟	؟
-15شعبان/10فيفري	08	؟	؟	؟
-10رمضان/8مارس	19	محمد علي باشا مصطفى رايس	؟	؟
المجموع	**56**	/	/	/

نلاحظ أن معظم المتطوعين كانوا من أزمير، وأن أكبر عدد منهم كان في السنوات (1825-1826-1827م) ، غير أن العدد تراجع بعد ذلك، ويرجع ذلك ربما إلى الحصار الذي فرض من طرف فرنسا على الجزائر، إلا أنه رغم ذلك فعملية التجنيد لم تتوقف نهائيا؛ ويحتمل أيضا ضعف الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة، والمشاكل التي كانت تعانيها، منها فساد نظام الانكشارية، الأمر الذي نجم عنه ما عرف بالواقعة الخيرية 1826م.

وربما أصبحوا لا يجدون ما يغريهم في هذه المناصب، وفي هذا يقول القنصل الأمريكي وليام شالر: "...الواقع أن الحياة المفروضة على الانكشاري حياة مملة وتبعث على الضيق، ومن ثم، فإن كثيرا ممن لا يرتبطون بعلاقات الزواج في البلد، وليس لديهم وظائف تدر عليهم المال يهربون من هذه الحياة متى استطاعوا ذلك...".

وإدراكا من الداي حسين لتزايد أعدائه بالداخل والخارج، عزم على إعداد جيش نظامي أساسه جنود زواوة، فاستشار الديوان حول المشروع مبينا لهم أهمية ذلك، فطلب من قبائل بلاد زواوة أن يبعثوا بأولادهم ليسجلوا في دفاتر الجيش النظامي(أي يصبح لهم دخل قار...الخ).

كلف الداي رجال من أغوات الترك، وأمرهم بتسجيل جنود زواوة في دفتر الجند، وقد بلغ عدد المجندين حوالي ألفين رجل، الأمر الذي أغضب الجنود الأتراك فأصبحوا يرون في الجند الجديد منافسا لهم: وفي هذا يقول الزهار: "... فأمره الباشا في كتابتهم في دفتر العسكر، فكتب منهم نحو المايتين وهو حاضر... فلما غاب عنهم ضرب الخوجة الأرض بالقلم الذي بيده، ودعا بالتركية الله مستحق وارسن، وذلك من شدة غيضه على كتابة أولاد العرب. وبلغ خبره للأمير. وكان عليه أن يعاقبه في نفس الوقت، لكنه سكت وصبر..."؛ ربما خوفا من الفتنة، أو من تمرد الانكشارية ضده؟.

يمكن القول أنه لو نجح الداي في تجسيد هذا المشروع، لوقف هؤلاء إلى جانبه، واستطاع بناء جيش قوي من السكان الأهالي يمكنه من صد العدوان.

هذا عن الجيش البري، فما ذا عن البحرية في عهد الداي حسين؟.

قدرت قوة الأسطول الجزائري سنة 1825م، بأربعة عشر سفينة مجهزة بـ 366 مدفعا منها 3 بارجة، وحرقتان(طراد)، وسفينتين ذات ثلاث صواري، و5 سكونة ذات صاريتين،وبولاكر واحد(مربعة الأشرعة)، وأكسيبكس واحد، وبالإضافة إلى هذه السفن توجد في طريق الصنع ثلاث سكونات، وخمسة وثلاثون زورقا حربيا من الحجم العادي.

والأرجح أنه تم الانتهاء من صنع سكونتين لأن الأستاذ سعيدوني يقول: "... عام 1827م، أصبح عدد السفن العاملة في الأسطول الجزائري 16 سفينة مسلحة بـ 398 مدفعا..."

المحاضرة الرابعة

العلاقات الجزائرية الفرنسية قبل حملة 1830م:

تأرجحت العلاقات البينية الجزائرية– الفرنسية بين الود والتوتر حينا، والصراع والقطيعة أحيانا، منذ القرن السادس عشر ميلادي، حيث منحت معاهدة سنة 1535م، بين السلطان سليمان القانوني، وفرونسوا الأول، امتيازات متعددة لفرنسا في جميع أيالات الدولة العثمانية، من بينها أيالة الجزائر، فكانت فرنسا تتمتع بامتيازات هامة في عنابة والقالة والقل بالشرق الجزائري ، تمثلت في الشركات التجارية، وكان الداي حسين قد التزم بمعاهدات تجارية ممضاة مع فرنسا من قبل سابقيه، منها تلك التي أمضاها الداي علي خوجة(1817–1818م) مع القنصل دوفال سنة 1817م، هذة المعاهدة سمحت لفرنسا حق استغلال المرجان بالشرق الجزائري، بشروط محددة قبلت فرنسا بها، وهي التعهد بعدم بناء حصون، ولا يتعدى عدد منازل الفرنسيين بعنابة، ثلاثة أو أربعة منازل، وعلى أن تلتزم فرنسا بدفع مبلغ من المال سنويا للداي، وباي قسنطينة.

1– الفاتيكان وقضية تفتيش السفن:

على اثر استيلاء البحارة الجزائيين سفينتين تابعتين للفاتيكان، وحجزهما بميناء عنابة سنة 1826م، ثارت حفيظة نائب القنصل الكسندر دوفال، إلا أن الداي حسين لم يرى في الأمر ما يقلله لا سيما وأن الفاتيكان لم يكن يربطهما بالجزائر أي معاهدة.

ورغم ذلك وجه القنصل دوفال رسالة إلى الداي حسين طالبه فيها باحترام سفن الفاتيكان، وبرفع الحجز عن السفينتين، وإرجاع البضائع المحجوزة، إلا أن الداي اكتفى بإطلاق سراح 13 فردا، واستاء من تصريح القنصل،غير أن ذلك اعتره وزير الخارجية الفرنسي غير كافي، أما عن تفتيش السفن، فمعلوما أن هذا المبدأ كان ساري المفعول بين الجزائر وفرنسا، حيث أقرته معاهدة 24 ديسمبر 1689م، ولم يلغ. ومع ذلك استغلت فرنسا قيام بحارة جزائريين بتفتيش سفينتين لها سنة 1826م، للتعبير عن سخطها، باعتبار ذلك إهانة لشرفها، مما يدل أن فرنسا شرعت في البحث عن الذرائع لتصعيد درجة التوتر تمهيدا لتبرير مشروع الاحتلال.

2– قضية الديون:

كانت الجزائر سباقة في الاعتراف بالثورة الفرنسية، والنظام الجمهوري الذي أفرزته الثورة، وفي الوقت الذي تعرضت فيه فرنسا لحصار خانق سنتي 1793 و1794م، من قبل الأنظمة الأوروبية الأخرى ، سارعت الجزائر مضحية بمصالحها مع كل من انجلترا واسبانيا إلى مد يد المساعدة للشعب الفرنسي في عهد الداي حسن باشا؛ من هنا تبدأ مسالة الديون تطفوا على السطح في عهد الداي حسين، وتعمل الحكومة الفرنسية على جعل منها عقدة في تأزم العلاقات البينية.

تأسست شركة بكري وبوشناق في فرنسا، لتصبح مصدر إيصال الحبوب لفرنسا ومساعدتها أن على أن تدفع هذه الأخيرة حساباتها آجلا، لأنها كانت في حالة حرب ، ومن جهة أخرى فداي الجزائر كان يضمن سوقا للقمح الجزائري، وإثر هذا ترتب على فرنسا دينا اختلف في تقديره، وما ترتب عليه من فوائد، إلا أن اللجنة التي أوكلت لها مهمة متابعة قضية الدين قدرته ب7 ملايين فرنك اعتمادا على المبلغ المعلن سنة 1800م، على أن تقتطع منه الديون التي كانت على بكري، وفق اتفاقية 28 أكتوبر 1819م.

بعدما كان الاتفاق على أن تسدد فرنسا الدين إلى الداي شخصيا، تغيرت مجرى الأحداث، ويقال أن الداي وافق على تسديد هذا المبلغ إلى يعقوب بكري، وهذا الأخير سيدفع ما عليه لحسين باشا، في 24 من شهر جويلية العام 1820م، صدر قانون عن البرلمان الفرنسي بتخصيص 7 ملايين فرنك فرنسي لتسديد دين يعقوب بكري، إلا أن فرنسا لم توفي بذلك، بل استطاعت أن تفرغ مسألة الديون من مضمونها، وذلك بإخراجها من قضية مطروحة على المستوى الدبلوماسي إلى قضية تخص رعايا البلدين تفصل فيها المحاكم، علما أن هذا الأسلوب هو تهرب من التزام الحكومة الفرنسية بالدفع، وفي نفس الوقت كانت تسعى من وراء ذلك إلى المزيد من رفع درجة التوتر لخلق ظروف كفيلة ومبررة لمخطط العدوان.

لقد تضاربت الروايات في كيفية تسديد الدين، فيذكر البعض أن الحكومة فرنسية دفعت 4.5 مليون فرنك لبكري، ووضعت في صندوق الودائع 2.5مليون، هذا الأخير خصصته لدائني بكري، إلا أن الداي غضب من هذا التصرف، لم يذكر أبو القاسم سعد الله عن كيفية تسديد الداي إلا انه أكد أن الداي لم يحصل على أي شيء من الديون المتراكمة على بكري.

وذكر قارو (Garrot) أن الحكومة الفرنسية دفعت 4.5 مليون لبكري، واحتجزت 2.5 مليون للدائنين، وقد خدع الداي من طرف عائلة بكري، فبعد أن قبضوا الأموال قرروا عدم العودة إلى الجزائر، فتجنس بكري بالجنسية الفرنسية، ورحل بوشناق إلى إيطاليا.

أما جمال قنان فذكر، أنه بعد تلاعب المحاكم الفرنسية في تسيير القضية مع دائني بكري، والذي كان الداي حسين يرى في المحاكم الجزائرية، بأنها صاحبة الصلاحية للبث في هذه القضية؛ وازدادت القضية تعقيدا، برفض السيد بليفيل دفع المبلغ الذي استلمه من الخزينة الفرنسية لمن فوضه، وهو 4.5 مليون، واحتفظت ب 2.5 مليون المتعارض عليها، أن الداي كاتب وزير الخارجية الفرنسية وطلب منه افتكاك المبلغ من السيد بليفيل .

فهل يفهم من هذا أن بكري استغفل، أم إنها خطة بين بكري وموكله بليفيل من جهة، وبينهما والقنصل الفرنسي دوفال من جهة أخرى للتحايل على الداي، هذه الرواية يعززها اتهام الداي حسين القنصل دوفال بالدسائس والتآمر من اجل الاستحواذ على أموال الدولة.

3- حادثة المروحة - حجة فرنسا الواهية- :

اعتمدت الحكومة الفرنسية، طريقة أخرى للتعامل مع الداي حسين، وهي عدم الرد على مراسلاته بشأن قضية الدين، وما زاد من شكوك حول نوايا فرنسا السيئة، هو تحصينها للباستيون في القالة، بحجة تهيئة مكان ملائم لإقامة التجار الفرنسيين، وهذا ما كان منافيا للشروط المتفق عليها بين البلدين.

حذّر الداي القنصل دوفال، بأن القالة مكان للتجارة، وصيد المرجان لا غير، فإذا أرادوا البقاء فعليهم الالتزام بذلك، وإلا فليرحلوا، وقد حاول دوفال أن يربح الوقت، فأكد للداي بأنه لا يوجد أي مدفع بالقالة.

لما كانت ليلة العيد، من سنة 1827م، ذهب القنصل الفرنسي دوفال ليهنئ الداي، يقول الزهار: "...طلع القنصل ليهنئ الباشا، وكان من عادته أنه لا يدخل يوم العيد مع القوانصة، لأنه في القديم كان تخاصم قنصلا الانجليز والفرنسيين على السبق بالتهنئة، ووقع بينهما ما وقع، فأمر الأمير يومئذ بأن يهنئ قنصل الفرنسيين ليلة العيد، ويهنئ قنصل الانجليز يوم العيد. وأصبحت تلك هي العادة...".

استفسر الداي حسين عن أسباب التعزيزات العسكرية التي قامت بها فرنسا في القالة، وعدم ردّ حكومته على رسائله، وبدل من أن يجيب القنصل بأدب ما تتطلبه الأعراف الدبلوماسية في مثل تلك الأمور، قلل دوفال من أدبه مع الداي، مما أثار حفيظته.

وفي هذا الشأن يقول بفايفر: "أن القنصل أجاب الداي...أن حكومته تفضل أن ترسل أسطولها وجيوشها إلى الشواطئ الجزائرية، وترفع أعلامها فوقها، لتكون عبرة للداي، على أن تستجيب لمطالبه..." ، يكمل كلامه فيقول: "...فثارت ثائرة الداي عندئذ، ولطم القنصل الفرنسي على رأسه بالمروحة التي كانت بيده...".

في حين أشار الزهار، بأن ملك فرنسا أخبر قنصله بأنه لا يجيب الداي، وإذا أراد شيئا منه فعليه أن يبلغه هو بما يريد، وأثناء مقابلة الداي ، وسؤال هذا الأخير، عن عدم رد حكومته على رسائله، أجابه القنصل بما أجابه الملك، فاغتاظ الداي، وكانت بيده منشة، ضربه بها، وشتمه وشتم ملكه.

أما أحمد الجزائري فيقول: "... وقعت بين حسين باشا وبين قنصل فرنسا مناقشة أفضت إلى المشاتمة بينهما. فحنق القنصل من الباشا، ومد يده إلى سيفه ليضربه، فهم الباشا بقتله، لولا أن نائبه إبراهيم توسط بينهما ومنه من ذلك وقال له: أن الشريعة لا تجوز قتل المستأمن. فعدل الباشا عن قتله واكتفى بضربه، وطرده من المجلس...".

وفي رواية حمدان خوجة، يقول أن دوفال أجابه بأن حكومته لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم، فضرب الداي القنصل بمنشته ضربة واحدة وطرده،

كثر الحديث عن الواقعة وملابساتها، غير أن فرنسا اعتبرت ذلك إهانة لشرفها وكرامتها، وكأنه ليس للواقعة مثيل قبل ذلك؟، فكانت الحادثة حدا فاصلا للعلاقات بين البلدين، ومبررا للاعتداء والعدوان على الجزائر؟.

المحاضرة الخامسة:

حصار فرنسا البحري للسواحل الجزائرية:

كان رد فرنسا سريعا، وذلك بإرسال قطعة من أسطولها بقيادة كولي (Collet)، وقد وصل هذا الأخير إلى الجزائر يوم 12 جوان 1827م، والتحق به القنصل دوفال، على ظهر السفينة المسماة لا بروفانس (Laprovince)، وطلب كولي من الداي أن يأتي شخصيا للسفينة، ويعتذر من القنصل، ولما كان يرى أن ذلك مرفوض مسبقا، فقد اشتملت تعليماته على الاقتراحات التالية:

1- أن يستقبل الداي، قبطان السفينة، وريس أركانه، والقنصل بمحضر الديوان، والقناصل الأجانب، ويعتذر أمامهم لدوفال.

2- أن يرسل الداي وفدا إلى الباخرة، برئاسة وكيل الخرج (وزير الحربية)، لتقديم اعتذار رسمي.

3- أن يرفع العلم الفرنسي على قصر الداي، وأبراج وحصون المدينة، وتطلق مائة طلقة مدفع تحية له.

في 15 جوان من نفس السنة أرسل كولي بالاقتراح إلى الداي حسين، عن طريق قنصل سردينا في الجزائر الكونت داتيلي دو لا تور(Dattili de la Tour)، الذي أصبح يرعى المصالح الفرنسية بعد انسحاب القنصل الفرنسي دوفال، وأعطاه أربعا وعشرين ساعة للرد، وكان رد الداي على داتيلي، أنه كان على فرنسا أن تكتب إليه مباشرة، وأن تعين قنصلا جديدا، غير أنها أرسلت إنذار مضحك، فرفض تلك المطالب، وبعد انقضاء المهلة أعلن كولي الحصار على الجزائر بدءا من 16جوان 1827م، أمر الداي بدوره بهدم الباستيون بعد ان غادره الفرنسيون، كما أمر بإصلاح مراكز الحراسة بعناية.

كان الفرنسيون، يهدفون من وراء الحصار، إلى قطع التموين عن الجزائر، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، لأن الحصار لم يستطع القضاء على النشاط البحري، بحيث استطاع البحارة الجزائريين خرقه وتحقيق أهداف على فرنسا التي ضيقت الخناق عليهم، حيث نجا من قبضتهم الرايس علي الفلوجي أثناء رحلته من الجزائر إلى عنابة، وفي 15 ربيع الأول 1243هـ

الموافق لـ 7 أكتوبر 1828م، قامت السفن الفرنسية بمطاردة الرايس علي الذي خرج إلى عرض البحر، وحاصرته في وهران.

إلا أن هذا لم يحد من عزيمة البحارة الجزائريين، فقد استطاع الرايس علي المنورفي، أن يستولي على سفينة فرنسية، قادها إلى حلق الوادي بتونس، وهذا ما أكده الحاج عمار المركانتي، في رسالته إلى أغا العرب إبراهيم بتاريخ 23 محرم 1243هـ الموافق لـ 17 أوت 1827م.

وفي رسالة من محمود بن أمين السكة وكيل الجزائر في بتونس، إلى الداي حسين، يستشيره في بيع الغنيمة الفرنسية، التي استولى عليها بحارة جزائريين، وقادوها إلى تونس، وهي سفينة محملة بالزيت يقول صاحب الرسالة: "... أسعدكم الرحمن وأدام لكم الجود والفضل والإحسان هو أنه أذنتونا فيه ببيوع الغنيمة الفرنسية الموسوقة زيتا، ندللوا على المركب والزيت جميعا، والحال يا سيدي، ترانا دللنا على الزيت ثلاثة أيام، واليوم الثالث اجتمعوا تجار المسلمين والنصارى عندنا في المخزن، ووقف السوم على تاجر رومي جنويز اسمه " جومين"....

واستولى الرايس علي البوزريعي بتاريخ 20صفر 1244هـ الموافق لـ 2 سبتمبر 1828م، على سفينتين فرنسيتين محملتين بالبضائع، وأرسلها إلى الجزائر، واستولى أيضا محمد رايس على سفينتين فرنسيتين محملتين بالملح، والشعير، والقمح، وبنادق، وسيوف، ومدفع صغير، وبارود، وقادها إلى سكيكدة، وهذا ما أكده في رسالته إلى الداي حسين بتاريخ 3 ربيع الأول 1244هـ الموافق لـ 14 سبتمبر 1828م.

اصطدمت السفن الفرنسية المحاصرة للسواحل الجزائرية، بسفن هذه الأخيرة، في معركة تضاربت الآراء في تحديد نتيجة هذا الاصطدام، يقول أحمد الجزائري: "...وكان أهل الجزائر حاضرين تلك الوقعة يستغيثون بالله...، فقاتلوا قتالا شديدا، فكانت الهزيمة على العدو، وركن إلى الفرار..." ، ويذكر أبو القاسم سعد الله، أن المعركة بين الأسطولين دامت حوالي أربع ساعات، ولم تسفر عن نتيجة لكل من الطرفين.

وأكد الداي حسين انتصاره على الفرنسيين، في رسالته إلى سليم ثابت أفندي وكيل الجزائر لدى الباب العالي، ووصل خبر الانتصار إلى مصر حيث يوجد مصطفى قبطان قائد

السفينة مفتاح الجهاد المحاصرة في الإسكندرية، وهذا ما نقله هذا القبطان إلى الداي، يخبره فيها بفرحهم، بتحقيق هذا الانتصار.

أما بفايفر فيشيد بجهود الفرنسيين، وشجاعتهم وصمودهم أمام السفن الجزائرية التي باغتتهم، يقول ورغم فرار السفن الفرنسية أولا، إلا أنه لم يعتبر هذا انهزاما، وإنما يقول بأن السفن الجزائرية لم تستطع إغراق لو سفينة واحدة فرنسية، وهذا ما أغضب الداي حسين، يقول بفايفر: "...أمر جواسيسه بأن يشيعوا بين الناس أن الفرنسيين قد هزموا تماما، وأن الفضل في نجاتهم يعود إلى شهامة الجزائريين وتسامحهم...".

إذن فرار السفن الفرنسية أولا، يعني عجزها عن التصدي للسفن الجزائرية التي صمدت ببسالة، وما نقله لنا بفايفر لا دليل على حقده للداي، وإنصافه ووقوفه إلى جانب بني جلدته النصارى؟.

في سبتمبر 1828م، أصبح لا بريتونيير (La Bretonniére)، قائد للحصار خلفا لكولي، إثر مرض هذا الأخير، ونظرا للخسارة الاقتصادية التي تسبب فيها الحصار، ولوجود معارضة قوية في البرلمان الفرنسي، قررت الحكومة الفرنسية أن تدخل في مفاوضات مع الداي حسين، فكلفت قائد الحصار بهذا، وقد سبق للحكومة الفرنسية أن فاوضت الحكومة الجزائرية، وقد كلف بذلك الضابط بيزار (Bézard)، إلا أن المحاولة باءت بالفشل.

محاولة التفاوض بين قائد الحصار لا بريتونيير والداي حسين، هي الأخرى باءت بالفشل، لإصرار فرنسا على إرسال وفد إلى فرنسا للاعتذار، وقد استغرب الداي من هذا، فكان يرى أن يكون الصلح في الجزائر أولا .

غادر الوفد الفرنسي في الثالث أوت من سنة 1829م خائبا، وقد تعرضت السفينة التي تقلهم لابروفانس، لطلقات نارية من التحصينات الجزائرية، التي اقتربت كثيرا منها، ويقر بذلك الفرنسيون، غير أنهم يرجعون ذلك لقوة الرياح، التي حالت دون سيرها في الاتجاه الصحيح، وقد برء الداي نفسه من الحادث، ولم تكن له صلة بما حدث، غير أن بفايفر رأى أن العمل كان مدبرا من طرف الداي وحتى لا يثير الرأي العام قام بعزل وزير الحربية، وقائد الميناء من منصبهما، ومهما كانت الأسباب فالجزائريون كانوا في موقع دفاع، وما صدر عنهم، سواء برروا أو لم يبرروا، ففي نظري تصرف صائب، حتى ولو أن ذلك زاد في شقة الخلاف بين البلدين؟

إذن الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية، كانت له أثار سلبية على البلدين، فقد كلفت فرنسا خسائر مادية قدرت ب2 مليون فرنك، أما عن الجزائر فرغم نجاحها في اختراق هذا الحصار من حين لآخر لممارسة النشاط البحري، ولصد بعض المناوشات الفرنسية، إلا أن نتائجه كانت وخيمة أثناء الحملة الفرنسية، فحوالي ثلاثة سنوات كانت لتنهك القدرات العسكرية للبلاد.

المحاضرة السادسة

الحملة الفرنسية على الجزائر ونهاية الأيالة:

1- مشاريع فرنسا لاحتلال الجزائر:

قبل بدء الحديث عن الحملة الفرنسية على الجزائر، علينا أن نشير إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن مشروع الحملة ومن ثم احتلال الجزائر، ليس وليد حادثة المروحة، ورد الاعتبار لكرامة وشرف فرنسا، وإنما هذا المشروع ترعرع ونمى في أذهان الملوك الفرنسيين، بدء من هنري الرابع، مرورا بلويس الرابع عشر ونابليون بونابرت، لقد كانوا يرغبون في تأسيس إمبراطورية استعمارية مترامية الأطراف.

إن مهمة الجاسوس بوتان (Boutin) في الجزائر عام 1808م، قصد إعداد دراسة عن الأوضاع العامة للجزائر، ما هي إلا إصرار نابليون الكبير على احتلال الجزائر؟، ولم يسعفه الحظ في تنفذ مشروعه، لانشغاله بالحروب الأوربية، وكذا قيام الثورة الفرنسية التي غيرت من مجرى الأحداث، توجد مشاريع أخرى نابليونية، قبل مشروع بوتان مثل: مشروع الملك شارل العاشر، ومشروع تيدنا عام 1802، ومشروع كرسي الأول والثاني (1792/1791م)

يذكر أبو القاسم سعد الله أنه في اليوم الذي أعلن فيه الحصار على الجزائر، كلف الجنرال لوفيردو (Loverdo)، أن يعد مشروعا يحتوي على المعلومات التاريخية، والجغرافية...الخ، التي تهدف إلى القيام بحملة ضد الجزائر، وأن مشاريع الحملة أصبحت تكثر يوما بعد يوم.

وهكذا ففي 7 فبراير 1830م، قرر الملك شارل العاشر(1824- 1830م) تنفيذ مشروع الحملة على الجزائر، وأصدر مرسوما ملكيا بتعيين الكونت "دي برمون" قائدا عاما للحملة، والأميرال دوبيري (De Pere) قائدا للأسطول، وبدأت الاستعدادات لتنفيذ الحملة، وبادرت فرنسا بإرسال مذكرة إلى الحكومات الأوروبية تخبرها بالقرار الذي اتخذته، وأن الحملة تستهدف الجزائر وحدها لرد الاعتبار للشرف الفرنسي؟

تجمعت القوات الفرنسية أواخر أفريل1830م بمعداتها في المناطق الساحلية الممتدة من طولون إلى مرسيليا، واشتملت على: 38000 شخصا، و4000 حصانا، و701 سفينة من مختلف الأشكال والأحجام.

ولقد استدع لمرافقة الحملة، مجموعة من العلماء، في مختلف التخصصات مثل: رجال الدين، والرسامين، وفريق من الأطباء والصيدليين، والمترجمين والذي بلغ عددهم حوالي 40 مترجم، كما حضرت مطبعة بهدف إعداد جريدة لنشرها في الجزائر، وفي شمال إفريقيا عامة.

قبل إنهاء التحضيرات قام الفرنسيون بطبع بيان باللغة العامية، قام العملاء، والجواسيس، والقناصل بتوزيع عدة نسخ منه في مختلف أرجاء الوطن، تمهيدا للغزو العسكري، ذلك أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لضمان النصر، فكان البيان قوة إعلامية ودعائية مساعدة تعمل على إضعاف معنويات الجزائريين، وبالتالي التخلي عن مساعدة الداي، لأن المنشور كان يحمل ادعاءات بأن الفرنسيين جاءوا لينتقموا من الداي وحده، ولتحرير الجزائريين من ظلم واستبداد العثمانيين.

هذا عن الجانب الفرنسي، فما هي استعدادات، وتحضير الداي لهذا الغزو؟

هل كان حسين باشا على يقين بالخطر المحدق ببلاده؟

هل عمل كل ما بوسعه لتحقيق النصر، أم أنا غروره بأن الجزائر البيضاء لا تقهر، جعله يستهين بقوة فرنسا؟

هل تذمر الأهالي، وسخطهم من بطش الأتراك وظلمهم، حال إلى تشتيت صفوف المسلمين، وبالتالي التعجيل بسقوط الحكم؟

2- استعداد الداي حسين للحملة الفرنسية:

استعمل الداي أسلوب الجوسسة للتعرف على نوايا الفرنسيين، ومعرفة تحركاتهم، ولإنجاح هذه العملية، خصص لهم مرتبات، وقد تمكن الجواسيس الذين كانوا في اسبانيا، ومرسيليا، وإيطاليا...الخ، من إعلام الداي باستعدادات الأسطول الفرنسي، وتحركاته، كما اتفقوا في نقل خبر مشترك هو أن الإنزال سيكون في سيدي فرج.

كما ساهم وكلاء الجزائر في الايالات العثمانية، من استعمال الجوسسة كطريقة للحصول على الأخبار، وهذا ما أكدته رسائل وصلت إلى الداي من وكلائه في مختلف البلدان، إذن فالداي حسين كان على علم أن الفرنسيين سينزلون بسيدي فرج، وهذا ما أكده أحمد باي في مذكراته فيقول: "...في سنة 1830 ذهبت على الجزائر لأداء الدنوش... قال لي ليس لديكم من الوقت الكافي للخروج إلى الفرنسيين الذين سينزلون بسيدي فرج، إنني أعرف مكان النزول من الرسائل التي تصلني...".

إضافة إلى هذا قام الداي بتحصين ساحل الجزائر الممتد من سيدي فرج إلى رأس تامنفوست، كما قام بترميم الحصون، والأبراج المهدمة، منها حصن الحراش الذي قام بترميمه الأغا يحيى، وشددت الحراسة فيها، كما كان حريصا على تشديد الحراسة في عنابة، وهذا ما أكدته المراسلات بين أحمد باي والداي حسين، حيث قام باي الشرق أحمد بإصلاح مراكز الحراسة في عنابة، بأمر من الداي حسين، خوفا من مباغتة العدو، لا سيما وأن مصالح فرنسا في عنابة، كما أمره بإطلاق المدافع على كل سفينة فرنسية تظهر قرب سواحل المدينة، كما كتب إلى باي وهران وأمره بتحصين المدينة.

وقد أسرع الداي بإرسال الرسل إلى البيات، وإلى شيوخ القبائل يخبرهم بقرب نزول القوات الفرنسية إلى البر، وأمرهم بالاستعداد لمواجهة العدو، وتشجيعا منه على مواجهة العدو، وخلق روح المقاومة في صفوف الجنود، والأهالي، فقد أمر بإعطاء 150 دولارا لكل مقاتل يحمل له رأس فرنسي، ففي 22 مايو 1830م فقط كان قد وزع 12 ألف دولار.

أما الاحتياطات التي اتخذها الداي من جانب البر للعاصمة الجزائر، فقد أمر بإضافة بعض المدافع إلى حامية سيدي فرج، وأرسل بعض المئات من الجنود، كما أقام مخازن للحبوب من القمح، والشعير في المدينة وما حولها، أما من الناحية البحرية، فقد كانت الحاميات، والمواقع الدفاعية تمتد على الشاطئ من الشرق إلى الغرب، كما أقيمت ثلاث سلاسل متينة داخل الميناء، وكانت السفن الحربية راسية خلفها في مأمن، وأمامها خمسون زورقا.

في أوائل شهر مايو من سنة 1830م، وصل الداي خبر مفاده أن أسطول فرنسا غادر ميناء طولون، فأذاع الباشا الخبر على أهالي المدينة ونواحيها استعدادا لمواجهة الكفار، يقول

بفايفر: "...بهذه المناسبة سمح الداي لجميع العرب والقبائل بحمل السلاح، الذي كان محرما عليهم حمله سابقا...".

وقد أراد حسين باشا أن يوحد جميع الصفوف على كلمة واحدة، وهي محاربة العدو الكافر، أو أصبح لا يريحه كثيرا أمر الانكشارية، فأراد تدعيمهم بالأهالي؟، وتأكيدا لهذا الطرح فقد قام الداي بعزل المفتي العثماني، وولى مكانه مفتيا عربيا، وهو السيد محمد العنابي، كما قام بإرسال هدايا صغيرة إلى جميع الأئمة، وطلب منهم أن يتوجهوا له بالدعاء لينصره، وينصرهم الله على العدو.

فهل هذه الاستعدادات كانت كافية لدحر العدو على أعقابه، أم أن الداي حسين أغفل عن تحضيرات أخرى كان لزوما عليه أن يقوم بها؟

المحاضرة السابعة

المقاومة المسلحة الرسمية وتسليم القصبة

1- الإنزال الفرنسي بسيدي فرج، والمقاومة المسلحة:

ما أن وصلت القوات الفرنسية إلى سيدي فرج يوم 1830/06/14م، حتى شرعت في الإنزال مستخدمة زوارق إنزال؛ فأرسلت المدافع الجزائرية طلقات إشارة للمقيمين حول المدينة تأهبا لها.

في هذه الفترة كان الداي، يعاني مشاكل محلية أهمها محاولة قتله من طرف أنصار الأغا يحيى الذي أمر بقتله سنة 1827م، كذلك قلة عدد جيشه النظامي الذي لم يكن يتجاوز 6000 رجل، أيضا بعض المناوشات التي ظهرت بين الأهالي والإنكشارية، وقد نصح الداي الجند بغض النظر عنها، وأنه بحاجة إلى توحيد الصفوف في مثل هذه الظروف.

كانت قيادة الجيش بيد إبراهيم أغا صهر الداي حسين، ولم يكن كسابقه يحيى أغا الذي كان محبوبا من الجيش والعرب، وشارك في معارك كثيرة، أكسبته خبرة،وكفاءة، وغيرها من الميزات الحسنة التي كان يتحلى بها.

يقول حمدان خوجة أن الداي سلّم لصهره مبالغ مالية كثيرة ليوزعها على المحاربين، تحفيزا، وتشجيعا لهم على الصمود والمقاومة، غير أن الأغا، لم يعط شيئا لمن وجه لهم الداي تلك الأموال، كما وعد الداي بتسليم مبلغ من المال قدره 500 فرنك لكل جزائري يحمل إ'ليه رأس عدو، إلا أن صهره لم يدفع لهم شيئا، وكان يعدهم بدفع المبلغ بعد نهاية المعركة، وصدق المثل القائل: أحييني اليوم، وقتلني غدا؟

مهما يكن من أمر فقد اتجه الأغا إبراهيم إلى سيدي فرج، وقد تم الاستيلاء على هذه الأخيرة، بعد مقاومة ضعيفة من طرف الجزائريين، وشرعت الفرق العسكرية الفرنسية، بإنزال العتاد، ومختلف التجهيزات الأخرى، وجعلت القيادة العامة من ضريح الولي الصالح سيدي فرج مركزا للمراقبة، وجعل القائد العام للقوات الجنرال دو بورمون من المسجد إقامة له، ومكتبا لتوزيع أوامره، وتعليماته.

وصل خبر إلى الداي حسين، من طرف صهره، يخبره أن الفرنسيين حطموا حامية سيدي فرج تماما، وأنهم نزلوا إلى البر على الرغم من المقاومة الشديدة، فأمر الداي بالانسحاب إلى هضبة سطاوالي، حتى تأتي النجدة من البايات والمشايخ.

وصلت قوات باي قسنطينة مع 13000محارب، وأرسل باي وهران خليفته لتقدم سنه رفقة 6000 محارب، أما باي التيطري فقد أتى رفقة 8000 محارب، أوفد شيوخ القبائل ما بين 16000 و18000، ومن ميزاب 4000 محارب.

اجتمعت القوات الجزائرية في معسكر سطاوالي (سطح الوالي)، وقد اقترح أحمد باي على الأغا إبراهيم توزيع هذه القوات، وجعل جزء منها غرب سيدي فرج، حماية للعاصمة، وقد رفض الأغا هذا الاقتراح.

يوم 19 جوان 1830م، التقى الجيشان، وكانت دهشة الداي كبيرة لما سمع بانهزام الجيش الجزائري بقيادة صهره، وهروب هذا الأخير من ساحة المعركة، وظن الداي أن هزيمة الأغا، أثرت في معنوياته، فأوفد له حمدان خوجة للرفع منها، وتحميسه على مواصلة الجهاد، إلا أن حمدان وجده منكسر القلب، وخائف، وأقنعه بمواصلة المشوار بشق الأنفس، إلا أن الأغا إبراهيم، اختفى من جديد عند تقدم الجيش الفرنسي نحو العاصمة.

إن حمدان خوجة، وهو أحد المعاصرين للداي، وشاهد عيان على الأحداث الأخيرة، يلوم كثيرا الداي حسين على توليه قيادة الجيش لصهره إبراهيم، ويعتبر ذلك ذنبا لا يغتفر؟ يقول حمدان: "... إن حسين هو الذي عزل القائد يحي وعين خلفا له قائدا جاء ليحارب فرنسا بدون جيش منظم، وبدون ذخيرة، وبدون مؤونة، وبدون شعير للخيل، وبدون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب...".

بعد هزيمة سطاوالي (سطرح الوالي) اجتمع الداي بالبايات، لإعادة تنظيم القوات المشتتة، وتجديد المؤونة، وتعمير قلعة مولاي حسن أو ما تسمى بقلعة الإمبراطور (تقع قاعة الإمبراطور على نعد 1225مترا من القصبة، بنيت في القرن الخامس عشر ، في المكان الذي نصب فيه الإمبراطور شارل كان سنة 1514م خيمته، بنيت لإقامة الجنود، ويقال أنها بنيت بمواد ليست مناسبة، وبدون أسس، كانت محاطة بفيلات، وبساتين، فر أصحابها لما اقترب وصول الفرنسيين) ، واتفق الجميع على تجهيز الجيش والخروج إلى القتال، وأرسل الزهار لجرد

ما يوجد بالقلعة، وفي هذا الصدد يقول: "... وجدت به 10مدافع صغيرة، ونحو القنطارين من البارود، وما يقارب المايتي كورة(يقصد بها القذائف)..."، عين الداي مصطفى بومزراق باي التيطري خلفا للأغا إبراهيم، وطلب الداي حسين من المفتي العنابي أن يجمع الناس للدفاع عن البلاد، إلا أن الرجل، رجل علم وفتوى، ولا يصلح أن يكون رجل حرب.

قبل الاستيلاء على قلعة الإمبراطور، كانت تحدث مناوشات بين الطرفين، دامت أربعة أيام، حيث تمكن الفرنسيون من حفر الخنادق حول القلعة، ونصبو المدافع لمواجهتها، وفي اليوم الثالث من شهر جويلية 1830م، اقترب الأسطول الفرنسي من الميناء، حيث وقع تبادل للقصف بين سفن العدو، وقلاع مدينة الجزائر، ابتعد فيها الأسطول الفرنسي، ويذكر أن سبب تراجع الأسطول يعود إلى سوء الأحوال الجوية، إلا أن شريف الزهار يؤكد أن سبب تراجع الأسطول الفرنسي يرجع الى قوة المدفعية الجزائرية.

لقد أكد القنصل الإنجليزي بالجزائر أن المقاومة الحقيقية التي واجهت الفرنسيين قبل استيلائهم على مدينة الجزائر كانت من سكان الجبال الذين نزلوا إلى المتيجة لمواجهة العدو، وكان ذلك في معركة قلعة الإمبراطور.

بعد قتال كبير بين الطرفين، سقط على إثره قتلى من الجانبين، اشتد الأمر على الجزائريين، فمنهم من هرب، ومنهم من انتحر...الخ، وبقي الخزناجي مصطفى الذي وضعه الداي للمراقبة هناك، فغوى شخصا بإعطائه مالا لتفجير مخزن البارود ففعل، فتهدمت القلعة، ويذكر حمدان خوجة أن الانفجار وقع في المستودع الصغير، ولو كان في آخر أكبر منه لذهبت مدينة الجزائر كلها.

بعد الاستيلاء على قلعة مولاي حسن يقول بفايفر سارع الأهالي ليقنعوا الداي على الاستسلام، لكن الظاهر أن حسين باشا كان الوحيد الذي لم يجد الخوف إلى قلبه سبيلا، ورد رعاياه قائلا:"...إن حسين باشا لن يتفاوض مع الفرنسيين ما وجدت القصبة، لأنّي لأفضل أن أنسف القصبة والمدينة كلها على أن أخطوا خطوة كهذه...".

إذن إذا كان إصرار الداي على التمسك بالقصبة، والدفاع عنها، فماذا حدث بعد ذلك؟.

2- معاهدة الاستسلام وتسليم القصبة:

بعد استيلاء الفرنسيين على قلعة الإمبراطور، جمع الداي حسين سائر الأمناء، والأعيان، ورجال القانون، والفقه...الخ، وشرح لهم الوضع الخطير الذي آلت إليه البلاد، استشارهم في الخيار بين الأمرين: مقاومة الفرنسيين، ونسب النجاح ضئيلة جدا؟، للخسائر التي تكبدتها الجزائر، أو تسليم المدينة بمعاهدة، تجنب إراقة الدماء، وتضمن أملاكهم وشعائرهم.

فهل كان الداي يبحث عن ضمان لحريته وعائلته، وثروته؟

أجابه الحاضرون بأنهم سيحاربون إلى أن يستشهدوا عن آخرهم، غير أنه إذا رأى سموكم (الداي)، وسائل أخرى فأنك حر في أن تعمل ما تراه صالحا...".

هذا الموقف يدل على تحليه بمبدأ المشورة والديمقراطية، واستشارته لجميع الطبقات قبل اتخاذ أي موقف، ولم يكن استبداديا في أخذ قراراته، لو أراد أن يفاوض الفرنسيون وحده لفعل، ولا يجرأ أحد على معارضته؟

بدأت بوادر الانهزام تدب في صف الجهاز الإداري والاجتماعي، فاجتمع عدد من أعيان البلاد في باب البحرية، وقد كانوا من كبار التجار وأصحاب المال، وأكدوا أن البلاد ستضيع، وتفاديا لإراقة الدماء، فضلوا اقتراح الداي الثاني، وهو توقيع معاهدة للاستسلام، مع قائد الجيش الفرنسي، وكان اعتقادهم، أن امة شريفة ونبيلة مثل فرنسا، لا يمكن أن تخلف وعودها.

أبلغوا الداي بما اتفقوا عليه، ووافقهم على ذلك، فأوفد أحمد بوضربة، وحاج حسين بن سي حمدان، وهما يتكلمان الفرنسية، وكان إلى جانبهما القنصل الإنجليزي باعتباره صديقا للدي، وقد صرح بأنه لم يأتي كموظف لدى الحكومة الانجليزية، وإنما أت لوقف إراقة الدماء، والحيلولة دون أن يخرب الداي جزء من المدينة.

تم التوقيع على معاهدة مدينة الجزائر أو ما يعرف باتفاقية الاستسلام بين الداي حسين والقائد الفرنسي دو بورمون يوم 05/ 07/ 1830م، ومما جاء في بنودها: تسليم جميع حصون المدينة والميناء للقوات الفرنسية قبل الساعة العاشرة، في 5 جويلية 1830م، وضمان الفرنسيين للثروات الشخصية للداي والمليشيا التركية...الخ.

هدفنا الوحيد هو معاقبة الداي حسين لأنه أهان شرفنا، هكذا كان يقول الفرنسيون؟

هدفي هو حماية دار الإسلام، ولن أنبطح لفرنسا ما حيت، هكذا كان يقول الداي حسين.

أمام إدعاء فرنسا الكاذب، التي طالما فكرت في استعمار الجزائر ونهب خيراتها، وتقييد حرية سكانها وهذا ما أكدته فور احتلالها.

وأمام ضعف قوة الداي العسكرية، والدسائس التي كانت تحاك ضده لضرب جهازه الإداري، فضل الداي الرحيل تاركا وراءه شعبا يحلم بلحظة واحدة من الحرية، حرم منها ما يزيد عن 132سنة مقيدا بغلال المستعمر المدمر؟

المحاضرة الثامنة

- موقف الدولة العثمانية والدول العربية من الحملة الفرنسية على الجزائر

1- موقف الدولة العثمانية:

بالرغم من المشاكل التي كانت تواجه الدولة العلية أيامها الأخيرة، إلا أنها حاولت إصلاح الوضع بين الطرفين، ولو أنه كانت تميل الكفة إلى الجزائر لأنها أيالة من أيالاتها،

لتوضيح سبب الخلاف بين الجزائر، وفرنسا راسل حسين باشا، الصدر الأعظم، أواخر جمادى الأولى 1243 الموافق لـ 19 ديسمبر 1827م، أطلعه فيها على أسباب الخلاف، بدء من حادثة المروحة، وتهديد فرنسا في حال عدم استجابة الداي لمطالبها، وغير ذلك من الأعمال المخلة بالقوانين المعمول بها من طرف فرنسا، كبناء قلعة في الباستيون تحتوي على أجهزة عسكرية، ورغم كل ذلك فالداي كان صريحا في موقفه، ولم يبادر إلى الحرب، بحيث طالب الحكومة الفرنسية بضرورة تغيير القنصل إذا أرادت الصلح؟

بعد هذا قام الباب العالي، بمساعي سلمية، تمثلت في إرسال شخصيات إلى داي الجزائر حسين باشا، محاولة إقناعه بإعادة العلاقات مع فرنسا، تجنبا للحرب، التي ليست فيها خيرا لا للبلاد، ولا العباد.

أولى محاولات الدولة العلية في هذه القضية، تمثلت في إرسال خليل أفندي، لإقناع الداي بضرورة إعادة العلاقات مع فرنسا، وفور وصوله إلى الجزائر في 29 نوفمبر 1829م، طلب من حسين باشا إرسال بعثة إلى فرنسا للاعتذار لها، غير أن هذا الأخير رفض، وذلك للشروط المهينة التي وضعتها فرنسا.

بعد تدخل القنصل الإنجليزي وافق الداي على الاتصال بقائد الأسطول الفرنسي لابريتونير ولكن بشروط وهي:

1- رفضه إعادة بناء الباستيون بالقالة من طرف الفرنسيين.
2- رفضه احتكار فرنسا للتجارة بعنابة.
3- على فرنسا أن تدفع أكبر قيمة من المال إذا أرادات الاحتفاظ بصيد المرجان.

4- إبقاء المعاهدات المبرمة بين البلدين سارية المفعول.

5- في حالة قبول فرنسا لهذه الشروط عليها أن ترسل مفوضا عنها يلتقي بخليل أفندي.

اتصل خليل أفندي بقائد الأسطول الفرنسي، لإصلاح الوضع إلا أن هذا الأخير، أخبر خليل أن حكومته رفضت الشروط التي وضعها الداي، وهكذا انتهت مهمة خليل أفندي بالفشل؟

لم تنته مساعي الدولة العثمانية عند فشل مهمة خليل أفندي، بل اقترحت على السفير الفرنسي باسطنبول حلا آخر لحل الخلاف، وهو إرسال مبعوثين، فرنسي، وآخر عثماني، وقد وقع الاختيار على شخص طاهر باشا، أما عن الجانب الفرنسي، فقد اعتذروا عن عدم إرسالهم مبعوث، وكل ما فعله السفير الفرنسي، هو تقديم رسالة لطاهر باشا يوضح فيها مهام هذا الأخير، وطلب من قائد الأسطول الفرنسي المحاصر للجزائر، السماح له بالدخول إلى الإيالة.

سافر طاهر باشا إلى الجزائر، بعدما زود بمعلومات دقيقة لتأدية مهامه، يحصيها كوران أرجمنت في خمس نقاط هي:

1- عندما يصل الباشا إلى المياه الإقليمية الجزائرية يحاول التباحث مع قائد الحصار الفرنسي لتسوية الخلاف.

2- إذا رفض القائد فعليه أن بطلب من الحكومة الفرنسية تعيين موظف له صلاحية التباحث مع طاهر باشا ويدخل مدينة الجزائر.

3- يبين طاهر باشا للعلماء ولأعيان الأوجاق بالجزائر الأخطار التي ستنتج عن الحرب بين البلدين، كما يذكر بأن السلطان طلب حل النزاع.

4- إذا كان الجزائريين يرون أن اقتراحات فرنسا شديدة، فإن على طاهر باشا أن يتباحث مع الموظف الذي سترسله الحكومة الفرنسية لهذا الشأن.

5- إذا لم يتوصل الطرفان إلى تفاهم فعلى طاهر باشا أن يخبر الباب العالي عن الوضعية بتوجيه رسالة إلى السلطان، ولكن عليه أن يعمل ما بوسعه لإنجاح مهمته.

منع طاهر باشا من دخول الجزائر بحرا، ولم تشفع له رسالة السفير الفرنسي في اسطنبول، فحاول الالتحاق بالجزائر برا، عن طريق تونس، إلا أن بايها حسين (1824-1835م) ، منعه من الدخول تحت ضغوطات سفير فرنسا هناك.

فشل طاهر باشا في دخوله إلى الجزائر، ومن ثم فشل مهمته في حل الخلاف بين فرنسا والجزائر، فاتجه إلى طولون أين حاول الاتصال بملك فرنسا شارل العاشر(1824- 1830)، الذي رفض الاعتراف به كمبعوث، بل وقام بتعطيل مساعيه إلى أن تم الاحتلال.

2- موقف دول المغرب العربي من الحملة

أ- موقف تونس:

عند اعتلاء الداي علي خوجة الحكم، بادر إلى عقد الصلح مع تونس، إلا أن المبادرة باءت بالفشل، إثر إصرار حاكم تونس محمود باي(1814- 1824م)، على العداوة، مما جعل الداي حسين يرث علاقات متوترة مع تونس.

غير انه ما لبثت أن ظهرت الفتن، والقلاقل بين البلدين في عهد الداي حسين، يقول اسكار (Esquer)، اثر غزو فرسان باي الشرق (قسنطينة) الأراضي التونسية في 3 جويلية 1820م، أدى إلى ظهور مناوشات بحرية بين الطرفين،تمكن الجزائريون من الاستيلاء على سفينتين تونسيتين، وعندما بلغ الأمر الداي حسين أمر ببيع السفينة الأولى، أما الثانية فأعادها إلى تونس، لأنه وجدها تحمل رسائل وهدية للدولة العلية.

كذّب الداي حسين ادعاء محمود باي، باستيلاء بحارة جزائريين على سفينة تحمل هدايا للباب العالي، في فرمان وجهه إلى قبودان باشا بتاريخ 1235هـ الموافق لـ 1819 م، كما أخبره بتدخل أيالة تونس في الأمور الداخلية لأيالة الجزائر وذلك بتشجيع سكان تبسة على تمردها ضد الحكم.

كانت الدولة العلية في هذه الفترة، تخوض غمار الحرب ضد اليونان، فكان من صالحها أن توحد صفوف المسلمين، بدلا من تشتتهم، وتطاحنهم مما يزيد من ضعفهم، فهمّت إلى إصلاح ذات البينين.

طلب السلطان العثماني من كل منهما (الداي حسين، ومحمود باي) إرسال مبعوث إلى حضرته لينظر في الأمر، استجاب الطرفين لأمر السلطان، وأوفد كل منها مبعوث.

عند النظر في القضية أمر السلطان بالصلح بين الطرفين، وكتب لكل حاكم كتابا بذلك فوقع الصلح بين البلدين يوم 14 مارس 1821، وفي هذا يقول الزهار: "... ولما وصلت الفرمانات والرسل لأميري البلدين، عندئذ تم الصلح وفرح جميع المسلمين واستبشروا بإطفاء هذه الفتنة...".

بعد هذا الصلح، ساد بين الداي حسن، ومحمود باي علاقات تعاون وإخاء، كما تؤكده رسالة حسين باشا سنة 1824م إلى باي تونس، يشهر بالحرب بين الجزائر والإنجليز، ويطلب منه إيفاده بأخبار عن تحركات هذه الأخيرة يقول نص الرسالة: "... مقام المعظم الأجل، الزكي الأفضل، الخير الأشمل... أخينا ومحبنا وصديقنا السيد محمود باشا محروسة تونس أدام الله له الهناء والعافية... إن أعداء الله ورسوله طايفة النصارى الانجليز دمرهم الله تعالى وأهلكهم...أعاننا مولانا خير الناصرين..." لقد اعتبر الداي حسين اتصاله بمحمود باي عملا لا بد منه لأنهم أمة إسلامية واحدة فيقول: "...وها نحن قد أعلمناكم بذلك لتكونوا على بصيرة فيما هنالك، لأننا حال واحد وأمر متحد وإخوان مومنون ومسلمون وعلى الله تعالى متوكلون...".

عند وفاة محمود باي خلفه ابنه حسين باي الثاني (1824- 1835)، والذي اتسمت العلاقات في عهده بالسلمية مشوبة بالحيطة والحذر من طرف حسين باشا، ومكر وخديعة من طرف حسين باي، لا سيما فترة الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية، وأثناء الحملة الفرنسية على الجزائر، حيث اتضحت نواياه السيئة اتجاه الجزائر.

هذا وقد استلم الداي حسين بتاريخ 21 جمادى الأول 1243هـ الموافق لـ 11 ديسمبر 1827م، من أحمد باي يطلعه فيها عن أخبار بايلك الشرق وهروب

بعض الرعايا من الجزائر إلى تونس وكدا الخلاف بين البلدين.

كما راسل الداي حسين، حاكم تونس حسين باي، عن طريق وكيله هناك السيد محمود بن أمين طالبا منه إرجاع العساكر الفارة إلى أيالة تونس، والبالغ عددهم 80 جنديا، إلا أن باي تونس تذرع له بحجة أنه لا يستطيع أن يجبرهم على العودة، لأنهم تحت سنجق واحد (الدولة

العثمانية)، نقلا عن محمود بن أمين السكة في رسالته إلى حسين باشا، الدي ورد فيها: "...أسعدكم الرحمن، وأدام لكم الفضل والجود والإحسان هو أنه ذكرتم لنا فيه وأكدتم علينا غاية التأكيد بأننا نكون ببال من العسكر الذي يهرب من وجاقنا المنصور إلى هنا اعلم سيدي أنه من حين قدمت إلى تونس قدموا ما ينيف على الثمانين يولداش شي بعد شي وكلمنا عليهم المعظم الأرفع السيد حسين باشا باي ليرجعهم ثانيا مثل ما عرفتنا سيادتكم فأجابنا وقال لنا هذا الأمر لا يمكن أبدا وهذا شيء سابقا من قديم الزمان العسكر يهرب... ومن جملة ما قال لنا نحن تحت أمر مولانا السلطان نصره الله وعندنا خانات في أزمير والذي يهرب تحت سنجقكم وسنجقنا، لم يخرجوه من تحت السنجق احتراما لتعظيم السنجق..." ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مكر باي تونس، وربما كان يريد إضعاف الجهاز العسكري لأيالة الجزائر، وذلك بتشجيع الفارين من المجندين وإيوائهم ؟.

لكن الداي كان أحكم، وأفطن منه، فراسل السلطان العثماني بهذا الشأن، حيث أصدر هذا الأخير أمرا إلى باي تونس، بعدم السماح للجنود الفارين من الجزائر، بالإقامة بتونس، أو المرور عبرها إلى الأناضول، والقبض عليهم

وتسليمهم لوكيل الجزائر ليعيدهم إلى وحداتهم التي فروا منها .

بتاريخ 19 رجب 1243هـ الموافق لـ 6 فيفري 1828م، راسل حسين باي، الداي حسين، يعلمه باستجابته لأوامر الباب العالي، في أمر الجنود الفارين، وإعادتهم إلى أيالة الجزائر، بعدما كان هذا المطلب مرفوضا من قبل بتلفيق حجج واهية؟

عند نشوب الخلاف بين الجزائر، وفرنسا، وفرض هذه الأخيرة حصارها على السواحل الجزائرية، كان الداي حسين على اتصال بوالي تونس يخبره عن تطورات الأحداث بين البلدين المتنازعين، ظنا منه أنه يميل كفة تونس الشقيق للتعاون معه، أو الوقوف إلى جانبه؟ غير أن والي تونس حسين باي بقي محايدا، ويا ليته بقي على هذا الموقف، فقد ظهرت نواياه المؤيدة للفرنسيين، قبل احتلالهم الجزائر، كما تؤكده رسالة من محمود بن أمين السكة بتونس إلى والي الجزائر حسين داي بتاريخ 25 محرم1243هـ الموافق لـ 19 أوت 1827م، يخبره بوصول سفينة جزائرية إلى تونس، حيث رفضوا تزويدها بالمؤونة دون معرفة السبب.

كما قام بعرقلة مبعوث السلطان العثماني للجزائر طاهر باشا، من دخوله إلى الجزائر برا عن طريق أيالته، لحل الخلاف الجزائري– الفرنسي.

أما عن موقفه من احتلال الجزائر، فقد كان موقفا مخزيا، ويعود ذلك ربما إلى الإغراءات التي قدمها له القائد الفرنسي كلوزال الذي خلف

دي بورمون، والقاضية بإقامة إمارتين تحت حمايته هما: قسنطينة، ووهران.

كما قام الباي بفتح أراضيه لعبور الجيش الفرنسي، لمهاجمة الجزائر برا من الناحية الشرقية، وإثر انتصار الجيش الفرنسي على الجيش الجزائري بسيدي فرج، سارع وفد من تونس بأمر من بايها إلى تقديم التهاني بهذا النصر، رغم ما قدمه هذا الباي من مساعدات إلى الفرنسيين، إلا أن أحلامه التوسعية تبخرت بعدم تجسيد الوعود المبرمة بينه، وبين العدو الفرنسي.

ب– موقف المغرب الأقصى:

تزامنت فترة حكم الداي حسين فترة حكم السلطان مولاي إسماعيل(1772–1822) حيث تميزت العلاقات بين الدولتين بالسلمية وسادها التعاون والإخاء.

في سنة 1237هـ/ 1820م، قام سلطان المغرب بإرسال سفينة إلى الجزائر، دعما منه للبحرية الجزائرية، وهي السنة التي فر فيها حاكم وجدة إلى تلمسان، إثر ثورة قام بها السكان ، فوجه الداي حسين أمرا إلى باي الغرب حسن باي بإرسال بعض الجنود معه ليعيدوه إلى منصبه، كما اقترح حسين باشا على مولاي إسماعيل إرسال قوات جزائرية إلى أراضي فاس لإعادة الأمن بها، كما تؤكده رسالة حسين داي إلى مولاي إسماعيل المؤرخة بتاريخ أواسط صفر 1237هـ الموافق لـ أواسط نوفمبر 1821م.

سنة 1830 نشب بين المغرب، ووليها في هذا الزمان السلطان عبد الرحمن بن هشام(1822–1858م)، والنمسا خلاف، وصل بين الطرفين إلى الاصطدام المباشر، فقام الداي حسين بتجهيز ستة سفن حربية استعدادا للقتال إلى جانب الشقيق المغرب، إلا أن الباب العالي حد من عزيمة الداي، فأرسل

فرمانا يأمر فيه الداي بعدم التدخل في الخلاف الواقع بين الطرفين.

وما يمكن الوقوف عنده، هو التدخل غير المباشر في القضايا الداخلية لأيالة الجزائر من طرف المغرب الأقصى، وذلك بإيواء أصحاب الطرق الصوفية المعادية للحكم العثماني، وهذا ما حدث مع التجاني الذي استقبله مولاي عبد الرحمن هو وعائلته بل وقربه منه.

أما عن موقف المغرب من النزاع الجزائري- الفرنسي، فهو الأخر كان محايدا، وبعد فشل المفاوضات بين الجزائر وفرنسا، وقرار هذه الأخيرة بغزو الأيالة، فرغبت فرنسا في معرفة موقف المغرب، من خلال تواجد قنصلها هناك "دو لابورت" (De Laporte)، الذي اتصل بالسلطان عبد الرحمن، وطلب منه مساعدات للفرنسيين وأسطولهم، غير أن السلطان لم يضمن لهم المعاملة الحسنة من طرف المواطنين، ووافق على تموين الأسطول الفرنسي من الموانئ المغربية، على أن تدفع فرنسا الرسوم الجمركية.

لكن هذا الموقف لم يدم طويلا، خاصة بعد انتصار الفرنسيين على الجزائريين، استقبل سلطان المغرب وفدا من تلمسان يطلبون منه مدّ حمايته إلى إقليمهم وقد استجاب السلطان، وعين مولاي علي خليفة في تلمسان في أكتوبر عام 1830م، إلا أن الماريشال كلوزال هدّده بسحب قواته من هناك، وإلا سيكون مصيره مثل مصير الجزائر.

ج- موقف طرابلس الغرب:

لا نعرف الكثير عن العلاقات بين البلدين قبل فترة الحصار الفرنسي للجزائر، غير أنه يمكن القول عنها أنها كانت حسنة، يسودها التعاون، والإخاء.

إثر نشوب الخلاف بين الجزائر وفرنسا، وصلت إلى حسين باشا رسائل من يوسف القرمانلي حاكم طرابلس الغرب في هذه الفترة، وما نستشفه من هذه الرسائل التشاور والتباحث بين الطرفين في تسيير أمورهما وحل مشاكلهما.

فبتاريخ 12 ذو القعدة 1245هـ الموافق لـ 6 ماي 1829م،وصلت الداي حسين رسالة من يوسف بن علي باشا، يعلمه فيها بتعيين إبراهيم باشا نجل محمد علي، واليا على الإيالات الثلاث (تونس، الجزائر، طرابلس)، ويؤكد يوسف القرمانلي للداي حسين بأنه سيدافع عن أيالته إلى آخر رمق.

عند اشتداد الخطر الفرنسي على الجزائر، راسل الداي حسين جيرانه المغاربة يستشيرهم حول هذا الخطر، وكيفية التصدي له، فكان موقف يوسف القرمانلي اعتذاره عن تقديم مساعدات مادية وعسكرية نتيجة الأزمة الاقتصادية والمالية التي حلت بطرابلس، وكذا ازدياد الضغط الأوروبي عليها، فكانت نواياهم حسنة، والتي لم تتجاوز الدعاء بالنصر للجزائر عقب الصلوات في المساجد.

اتخذت فرنسا، من موقف طرابلس المعادي احتلالها للجزائر، ذريعة لمعاقبة يوسف باشا، وإرغامه على تقديم اعتذار، وتنفيذ أوامر فرنسا، ولم يكن بوسع يوسف القرمانلي أمام تهديد الأسطول الفرنسي إلاّ بقبول شروط فرنسا المجحفة.

3- موقف مصر من الحملة الفرنسية على الجزائر1830م:

ما طبيعة العلاقات بين البلدين في هذه الفترة؟

ما مدى صحة تفكير محمد علي في الاستيلاء على الأيالات المغاربية الثلاث، ومن بينها الجزائر؟

هل للعلاقات الوطيدة بين الداي ومحمد علي، تركت حسين باشا يختار صديقه إن لم نقل غريمه محمد علي، للإقامة عنده بعد النكبة التي أصابته، وبقائه هناك حتى وفاته؟

ربطت الجزائر ومصر الفترة المدروسة، علاقات شخصية وقضايا وأحداث سياسية، وأخرى اقتصادية وثقافية، كل هذا برهن على التواصل بين البلدين، رغم الاختلاف في وجهات النظر أحيانا.

كانت مصر عبر العصور، محطة رئيسية لركب الحج المغاربي بصفة عامة والركب الجزائري بصفة خاصة، وقد زارها في الفترة قيد الدراسة العالم

الجزائري أبو راس الناصر، وقد اهتم هذا الأخير بانجازات محمد علي،

وما وصلت إليه مصر من تقدم في هذا العهد.

كما زارها أيضا الحاج أحمد باي حوالي سنة 1818م، يقول الأستاذ سعد الله: ولا ندري هل قابل أحمد باي، محمد علي أم لا، لأن هذا الأخير كان يقيم

مآدب وحفلات استقبال على شرف بعض الأعيان من حجاج أهل المغرب.

كانت مصر أيضا محطة سفر الأمير عبد القادر، وأبوه محي الدين سنة 1827م، ويذكر الأمير عبد القادر، والذي كان عمره آنذاك لا يتجاوز سبع عشرة سنة، أنه رأى لأول، وآخر مرة محمد علي.

وأهم مركب زار القاهرة في الفترة قيد الدراسة، هو الركب الذي كان يضم محمد أفندي أخ حسين باشا، ومحمود بن العنابي، وابنه محمد، ولقد راسل الداي حسين وكيله بمصر، يخبره بقدوم أخيه إلى مصر، وطلب منه أن يسهلوا له الإقامة هناك.

وليست المرة الأولى التي يراسل فيها الداي وكيله بمصر، ليسهر على راحة أخيه ورفاقه، بل كان الداي حسين يراسل وكلائه بمصر ليسهروا على راحة الحجاج ورعاية شؤونهم، وما رسالة وكيله برشيد في مصر، الحاج أحمد إلا تأكيد على ذلك، فقد أكد له في الرسالة وصول الحجيج وسهره على الاعتناء بهم، وراسل الداي حسين محمد علي، طلب منه تقديم مساعدات لبعض الجنود، الذي سمح لهم بأداء مناسك الحج، بقيادة سعيد جاوش الذي عين وكيلا لبيت المال.

كان بين الداي حسين ومحمد علي والي مصر، اتصالات توجت أكثر من مرة بهدايا من طرف حسين باشا إلى والي مصر ونجليه إبراهيم وعباس، وهذا ما تؤكده رسالة محمد علي إلى الداي حسين بتاريخ 19 ذي القعدة 1242هـ الموافق لـ 15 جوان 1827م، يؤكد له فيها وصول محمد جاوش ناظر بيت المال إلى مصر، ومعه رسالة وهدية له.

وفي رسالة من مصطفى رايس قائد السفينة مفتاح الجهاد المحاصرة في الإسكندرية إلى الداي حسين، أكد له وصول مبلغ المال الذي أرسله هذا الأخير إلى مصطفى، وجنوده، ومعه هدية إلى ولدي محمد علي، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على المودة بين الطرفين.

كما أكد مصطفى رايس في بعض رسائله التي كان يرسلها إلى الداي، ومعه الرايس عبد الرحمن قائد السفينة رهبة على المساعدات الكثيرة التي كان يقدمها محمد علي لهما، لا سيما وأن السفينتين كانت تعاني من مشاكل المؤونة،

ودفع رواتب جنود السفينتين، إثر الحصار الذي فرضته عليها السلطة الفرنسية في ميناء الإسكندرية.

إضافة إلى هذا كانت مصر مركزا لتجنيد المتطوعين لأيالة الجزائر، وقد استمرت عملية التجنيد من هناك حتى فترة الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية.

أما عن محمد علي ومشروع احتلال الجزائر، فقد كتب حول هذا المشروع، وظهر أن محمد علي كان يفكر في ضم الدول المغاربية الثلاثة (تونس، طرابلس، والجزائر) إلى سلطته منذ سنة 1820م، إلا أن المشروع فشل، إضافة إلى اهتمام محمد علي بهذا المشروع، ظهر إلى الساحة السياسية الفرنسية بولينياك، فأصبح رئيسا للوزراء، وهو الآخر كان يؤمن بضرورة قيام بلاده بحملة ضد الجزائر، ولا سيما بعد حادثة المروحة المزعومة، ففكر في إشراك والي مصر معه لعلمه بطموحاته التوسعية.

أرسل بولينياك تعليماته إلى سفيره بإسطنبول، لجس نبض السلطان وإقناعه بالفائدة التي سيجنيها من هذه الحملة، غير أن السلطان العثماني رفض ما تقترحه فرنسا، وأرسل خليل أفندي صديق الداي حسين للحديث معه، إلا أن هذا الخير فشل في مهمته لأن فرنسا كانت تريد الرجوع إلى الشروط السابقة لصيد المرجان في القالة، وكذلك موقف بريطانيا المعادي للحملة خوفا من تعرض نفوذها في المنطقة إلى الخطر لأن في نظرهم محمد علي تابع للنفوذ الفرنسي.

يتضمن المشروع خطة تقضي بتسيير جيش مصري بلاي، يحميه الأسطول الفرنسي بحرا، على أن تدفع له فرنسا 28 مليون فرنك، وتقدم له أربعة بوارج، غير أن الحكومة الفرنسية رفضت منحه البوارج التي طلبها، واقترحت عليه مبلغ 8 ملايين، وكل التسهيلات لإنشاء أربعة بوارج في الموانئ الفرنسية.

انتقدت الصحف الفرنسية المشروع الفرنسي لأن محمد علي بربري مثل الداي حسين، كما اعترض المشروع مواقف بريطانيا وروسيا، فأرسلت فرنسا

في السادس من فبراير رسولا إلى محمد علي تخبره بأنها ستقوم بالحملة وحدها.

بعد هذا أعلن محمد علي في بداية ماي 1830م، عن رفضه شن الحملة على الجزائر، وتونس، وطرابلس، لأن ذلك سيدخله في نزاع مع الباب العالي، ويشوه سمعته، ومكانته في العالم الإسلامي باعتبار تحالفه مع مسيحيين ضد أخوة له في الدين، فهل فعلا كان لمحمد علي حس إسلامي جعله يرفض المشروع؟ أم تخوفه من فرنسا حال دون تحقيق حلمه؟

رغم كل هذه الأحداث، فالمراسلات التي كانت ترد من الرايس مصطفى، قائد السفينة مفتاح الجهاد المحاصرة بالإسكندرية، تحمل أخبارا عكس التي كانت تروج، فكان محمد علي يترقب كل ما يحدث بين الجزائر وفرنسا، وينقلها إلى قائد السفينة، ليخبر هذا الأخير بها الداي حسين، وما شد انتباهي، رسالة بتاريخ 5 رمضان 1245هـ الموافق لـ 1 مارس 1830م، من مصطفى رايس إلى الداي حسين، يخبره بقدوم سفينة فرنسية إلى الإسكندرية اخبر قائدها أن فرنسا أعدت أربعين ألف جندي للهجوم على الجزائر عبر مستغانم، والمرسى الكبير، وسيدي فرج، وستحملهم إلى السواحل الجزائرية سفن حربية، وسفن للتجار محملة بالمؤن والذخيرة، واخبره أن ذلك القائد اسمه " موشجان"، دخل إلى الجزائر في زي رجل عربي وأقام بها 23 يوما، ثم انتقل من طولون قدم إلى الإسكندرية، ويقول مصطفى رايس بأن محمد علي ونجله إبراهيم أكدا عليه بإرسال هذه الأخبار إلى الداي حسين.

إذا صحت هذه الرواية فهل كان محمد علي يمسك العصا من الوسط حيث ما مالت يميل؟ أم أنه كان يوهم الداي بأنه لا علاقة له بمشروع فرنسا؟ أم أن انتمائه الإسلامي جعله فعلا رجلا غيورا على الدين، فدعاه ذلك إلى الوقوف إلى جانب الشقيق الجزائر؟

المحاضرة التاسعة:

موقف الدول الأوروبية من الحمية الفنسية على الجزائر سنة 1830م:

كانت الدول الأوروبية تتسابق لربط علاقات ود مع الجزائر، وكانت هذه الأخيرة تعتبر نفسها في حالة حرب مع هذه الدول، حتى يتم توقيع معاهدة صداقة وسلام، والاعتراف بالتفوق البحري للجزائر في البحر الأبيض المتوسط، غير أن الفترة الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر، بدأت العلاقات تتوتر بين الطرفين، وذلك بتكتل الدول الأوروبية ضد بحرية المغاربة، ومنها الجزائر، مدعية لنفسها حق القضاء على الاسترقاق؟

انعقد مؤتمر أكس لا شابيل في ألمانيا، حيث انضمت هذه المرة فرنسا، فأصبحت الدول المشاركة بالإضافة إليها: انجلترا، روسيا، بروسيا، والنمسا، وقد تمكن مندوبو هذه الدول من توقيع بروتوكول يوم 20 نوفمبر 1818م، يحمل قرارا صريحا، ينذر من خلاله دول المغرب العربي بإلغاء "القرصنة"، وإطلاق سراح الأسرى، وكلفت كل من فرنسا، وبريطانيا إبلاغ هذه الدول قرار المؤتمر.

في النصف الثاني من سنة 1818م، توجه الأسطول الإنجليزي بقيادة توماس فرومانتل (T. Fremantl)، والأسطول الفرنسي بقيادة جوريان دي لاغرافير (C.J. de Lagravire)، أين التقيا في ماهون، وتوجها إلى دول المغرب العربي لإبلاغها بقرارات المؤتمر.

وصلا الأسطولان إلى الجزائر يوم 4 سبتمبر 1819م، وقد خصص لهما الداي حسين لقاءين يومي 5، و9 سبتمبر من نفس السنة، استمع من خلالهما إلى قرارات ومطالب الدول الأوروبية، التي كان هدفها القضاء على الاسترقاق، وضع حد "للقرصنة".

بعد محادثات بين الطرفين رفض الداي حسين الامتثال لهذه المطالب، وقال للمبعوثين أنه حر في أن يحارب من يشاء، ويسالم من يشاء، وأنه سيتولى تفتيش جميع السفن الأجنبية، كما قام بإنذار جميع القناصل المعتمدين بالأيالة، بأنهم أعداء إذا ما رفضوا دفع الإتاوات المقررة عليهم.

إذن اعتبر الداي هذه المطالب تهديدا صريحا لشخصيته، ومن ثم سيادة بلاده، لذلك رفضها جملة وتفصيلا، إذا ما قورن بموقف حاكم طرابلس الغرب، وباي تونس، اللذان وافقا

على احترام كل المعاهدات المبرمة مع الدول الأوروبية، وكذلك المغرب الأقصى وافق سلطانها على قرارات هذا المؤتمر، وهذا ما يؤكده لنا الناصري، حيث قلل من النشاط البحري؛ غير أنه كان علي الداي حسين أن يستعد، استعدادا قويا لنتائج هذا التحدي الواضح؟.

1- موقف إنجلترا:

برزت الجزائر كقوة بحرية في المتوسط منذ التحاقها بالدولة العثمانية، ونظرا للأهمية التي اكتسبتها في هذه الفترة، اشتد التنافس بشأنها، ولا سيما بين فرنسا وانجلترا.

لقد سبقت الإشارة، أنه سنة 1816م، شنت إنجلترا بقيادة اللورد إكسموث، هجوما على مدينة الجزائر، تكبدت فيه هذه الأخيرة خسائر كبيرة مادية، وعسكرية، وبشرية... الخ.

إن التنافس بين فرنسا، وانجلترا من أجل الامتيازات الممنوحة لهما في الجزائر، عكر الجو بين هذه الأخيرة، وإنجلترا، إذ طلب الإنجليز من الداي حسين قطع علاقاته مع فرنسا، وعدم تموين مراسيها، إلا أن الداي رفضالاستجابة لمطلبه.

توترت العلاقات بين الطرفين، وصلت إلى حد، شن حملة على الجزائر، وذلك سنة 1824م، ومما زاد في توترها هو احتجاج الإنجليز على خرق معاهدة 1816م، وكان رد الداي حسين على هذا أن مدة المعاهدة كانت ثلاث سنوات فقط، كما رفض التوقيع على البنود الأخرى لأنه شك في الختم المعتمد من طرف السلطات الإنجليزية.

بعد هذا غادر القنصل الإنجليزي الجزائر، متخذا البارجة الإنجليزية، الراسية في ميناء الجزائر مقرا له، وعندما تلقى موقف الداي الرافض لشروطهم انسحب الأسطول الإنجليزي، وبدأ في شن هجمات على السفن الجزائرية الخارجة من الميناء والداخلة له.

دخل الإنجليز في مفاوضات مع الداي إلا أنها باءت بالفشل، وفي 23 فبراير 1824م، وصل الأميرال هاري نيال (Harry Neal)، إلى الجزائر حاملا تعليمات مفادها أن إنجلترا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الجزائر، كما طلبت من الداي أن يعتذر لقنصلها، وأن يعطيه جميع الامتيازات، وغيرها من الشروط.

أما إصرار الداي على عدم إعادة القنصل دونال إلى منصبه، مع ضرورة امتثال إنجلترا لدفع الإتاوة كبقية البلدان، قام الإنجليز مجددا بشن هجوم ب22 سفينة حربية استهدفت السفن الجزائرية الراسية في الميناء، غير أنهم لم يلحقوا أضرارا كبيرة بها، نظرا للقصف عن بعد.

بعد هذه المعركة أرسل الأميرال الإنجليزي سفينة ترفع علما أبيض للتفاوض، فتوصل الطرفان إلى عقد اتفاق سلم في 26 جويلية 1824، وقبل الداي حسين بعد استبدال القنصل ماك دونال.

لما نشب الخلاف بين فرنسا والجزائر، عملت إنجلترا على إحباط المشروع الفرنسي، غير أن ذلك لم يكن من أجل مصلحة الجزائر، والحفاظ على كيانها، وإنما حفاظا على مصالحها هناك، وخوفا من سياسة فرنسا التوسعية في شمال إفريقيا، التي كانت تستهدف غلق الأبواب في وجه إنجلترا، ولهذا بذلت إنجلترا كل ما في وسعها لإفشال المشروع الفرنسي، فراحت تخبر الدول الأوروبية، وكذا الباب العالي بخطورة المشروع التوسعي، كما سعت إلى محاولة إقناع والي مصر محمد علي وفرنسا بالعزوف عن مشروعهما، وحرضت الدول المغاربية ضد فرنسا.

بعثت انجلترا تحذر باي تونس، وحاكم طرابلس من حملة محمد علي، ووعدتهما بحمايتهما، وأسرعت إلى إخبار الدولة العثمانية، فقدم سفيرها مذكرة إلى هذه الأخيرة، كشف فيها عن التحالف الفرنسي – المصري، وطلبت من الباب العالي أن يرسل طاهر باشا في أقرب وقت إلى الجزائر لاحتواء الخلاف الناشب بين البلدين، كما طلبت منه أن تحذر محمد علي من تنفيذ اتفاقه مع فرنسا ضد الجزائر.

وفي لقاء للسيد جون، بالسيد دانيلي قنصل سردينيا بالجزائر، والذي تولى مهام قنصل فرنسا بعد رحيل دوفال، نبهه بأن بلاده(إنجلترا)، والدول الأوروبية لن يتركوا فرنسا تقوم بالحملة على الجزائر، لأن ذلك يتنافى والاتفاقيات المبرمة بين الدول.

ونظرا للعلاقات الودية بين الداي حسين والقنصل الإنجليزي سان جون، كان هذا الأخير كثيرا ما يطلع الداي عما يحاك ضد الجزائر من قبل فرنسا، ويطمئن الداي بأن فرنسا لن تستطيع الصمود في وجه الجزائر، وأن بلاده تؤيد الجزائر.

بقي القنصل على هذا الموقف إلى آخر لحظة، فأثناء التفاوض بين الداي حسين والقائد دي برمون، رفض السيد جون مقابلة هذا الأخير في مقر قيادته ، باعتبار أن السلطة الشرعية مازالت بيد حسين باشا، وقبل هذا رفض بأن يدلي بأي معلومة عن الداي حسين للقائد دي بورمون، الذي طلب منه ذلك، غير أنه وفي النهاية نجحت فرنسا في حملتها ضد الجزائر، وإنجلترا لم تساند الداي حسين، وكانت وعودها واهية؟، واقتربت إنجلترا من فرنسا واعترفت بحكم لويس فليب سنة 1830م، بعد سقوط حكومة شارل العاشر(1824- 1830م)، ولم يبق لإنجلترا سوى مساندة فرنسا في احتلالها الجزائر، فأصبحت لا تخشى من قوة الدولة العثمانية، التي أصبحت تعرف في هذه الفترة بالرجل المريض، الذي سيحتضر ليوزع إرثه.

2- موقف إسبانيا:

شهدت العلاقات الجزائرية- الاسبانية حروبا لفترات طويلة، انتهت بتحرير الجزائر لأخر الجيوب الاسبانية في وهران والمرسى الكبير سنة 1792م، وبعد هذا كانت اسبانيا تدفع الجزية للجزائر كما كانت تتعهد بحماية السفن الجزائرية في موانئها لكي تقوم بالأعمال التجارية.

وقد توترت العلاقات في فترة الداي عمر باشا(1815- 1817)، ويعود سبب هذا التوتر إلى فرار يهودي، حاملا معه جزءا من كنوزا تعود لباي وهران، وكان ذلك سنة 1813م، وقد وصل خبر أن اسبانيا قامت بحماية هذا اليهودي، فرفعت عليها دعوى، من طرف الداي عمر باشا، وطالبها بإعادة مسروقات الباي، إلا أن أسبانيا اعتبرت أن هذه الدعوى لا أساس لها من الواقع، وبقت العلاقات متوترة بين الطرفين.

تمت تصفية هذه الديون، والتزمت اسبانيا بتسديد المبلغ، إلا أنها ماطلت في ذلك، نظرا للوضع المالي الذي كانت تعيشه في تلك الفترة، وعند اعتلاء الداي حسين الحكم، طلب من الحكومة الاسبانية تسديد المبلغ المالي المتفق عليه، واقتنعت إسبانيا أن معاداة الجزائر يعني الضرر بمصالحها، فراسلت الداي حسين، وطلبت من قنصلها أن يسوي المسألة مع الجزائر، أو يغادرها.

ظلت أسبانيا تنتظر تسوية أفضل، لعلها تصل إلى تخفيض المبلغ المتفق عليه، وفي شهر ديسمبر 1825م، تقدمت الحكومة الاسبانية بمقترحات جديدة وافقت عليها فرنسا، التي كانت وسيط في النزاع، لكن سرعان مع أصبحت طرفا فيه، فقد خفضت المطالب المالية

الجزائرية إلى 300 ألف قرش اسباني، وهي التي أقرضت إسبانيا المبلغ، الذي دفع إلى الداي حسين ، وتنازل الداي عن ما تبقى من الدين وتم الصلح بين البلدين، ويمثل هذا تنازلا كبيرا من طرف أيالة الجزائر لتحقيق هذا الصلح.

بعد هذا بقيت العلاقات بين البلدين يسودها السلام، إلى غاية الحملة الفرنسية على الجزائر، حيث ساندت إسبانيا فرنسا في مشروعها ضد الجزائر، ولا ربما أعادها الحين إلى الماضي، فطمحت إلى استرجاع مستعمراتها في الغرب الجزائري؟.